الاسلام وتحديات العصر

الكتاب الثالث

الإسلام والكون

تأليف
دكتور عبد الغني عبود
كلية التربية جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الطبعـــة الأولى
مايو ١٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

— « هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور »

(قرآن كريم : الحديد — ٥٧ : ٤ ، ٥) .

* * *

— « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم »

(قرآن كريم : فصلت — ٤١ : ١١ ، ١٢) .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

ليست هذه السلسلة سلسلة دينية بالمعنى التقليدى ، كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وإن كان الدين الإسلامى يعتبر محورها الأساسى .

ولقد كان الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، بعيداً كل البعد عن الدين ، قريباً كل القرب من العلم الخالص... فى مجال التربية ، الذى تخصصت فيه ، وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقوم به من أبحاث .

وصحيح أن الدين ليس حكراً على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة والتربية ، ولكن المتخصصين فيه — بالضرورة — أقدر على العطاء ، وغير المتخصصين فيه لابد أن يكون عطاؤهم أقل ، وبجهد أكبر .

ويعود الدافع إلى إصدار هذه السلسلة إلى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الإسلامية) ، يحصل بها على درجة الماجستير فى التربية ، وهالنى رد أحد الزملاء — الأساتذة — عليه — بأنه لا يوجد — للأسف — تربية إسلامية .

ولم يكن بين يدى الرد ليلتها على الزميل ، ولا قدرة — بالتالى — على مناصرة الطالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليل .

ورجعت إلى ما كتب عن (التربية الإسلامية) ، فى الكتب والمجلات العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصلا بالتربية الإسلامية سوى.. العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته كان لمفكرين إسلاميين .. كبار .

وكان على أن أعتمد على الله وعلى نفسى ، فى التصدى لهذه المغالطة العلمية ، التى يقول بها بعض رجال التربية عن جهل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن قصور .

وجمعت المادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هذه المادة، وكتبت — بالفعل — على أساسها — كتاباً متكاملا عن (الأيديولوجيا والتربية، فى الإسلام) ، ولم يكن ينقصه سوى أن يدفع إلى المطبعة ، ليرى — بعدها — النور ، ويبث — بعدها — نور الحقيقة فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لها .

ثم عدت إلى نفسى ، وقلت لها : ولكن المسئولية أمام الله أكبر من هذا الجهد الذى بذلته ، فقد كان لابد — فى نظرى — من مزيد من البحث .

وقلت لنفسى أيضاً : ولكن هذا الجهد الذى بذل كبير ، وهو جدير بأن يرى النور .

واستقرت نفسى على أن ألخص هذا الذى كتبته ، فى ستين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ .

ثم استقرت — بعد ذلك — على نشر هذا المقال ، مع مقالين آخرين، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الإسلامية) ، فى كتاب يصدر قريباً تحت عنوان (مقولات فى التربية الإسلامية)(١) ، نظراً لأن كل

---

(١) الكتاب تحت الطبع الآن ، وستقوم بنشره (دار الفكر العربى) ، فى منتصف سنة ١٩٧٧ باذن الله ، مع تغيير محدود فى العنوان ، بحيث صار (فى التربية الاسلامية) فقط ، ومع تغيير محدود أيضا فى المحتويات ، فقد ضمت الى المقالات السابقة مجموعة مقالات ، سابقة ولاحقة ، بحيث تكون المقالات — مجتمعة — دراسة متكاملة ، تبدأ بمدخلين ، عقائدى وأيديولوجى ، وتنتقل الى التربية الاسلامية كفلسفة نظرية ، ثم تختتم بالواقع الراهن للتربية فى البلاد الاسلامية اليوم ، مع تحليل هذا الواقع ، والقاء نظرة مستقبلية عليه .

مقال من المقالات الثلاثة ، قد صدر — حيثما صدر — مليئاً بالأخطاء المطبعية ، التى أفسدت المعنى الذى كنت أريده فى بعض المواقف إفساداً .

واستقرت نفسى — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومى عن الإسلام ، وعن (الشخصية القومية الإسلامية) ، فهى المنطلق الحقيقى للحديث — الصادق — عن (التربية الإسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظام التربية فى أى مجتمع ، فى ضوء (الشخصيةالقومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ، يكون نظام التربية — فى نظرنا — نحن رجال التربية — معلقاً فى الهواء .

وفى ضوء تلك (الشخصية القومية) ، درست — وتدرس — التربية فى البلاد الرأسمالية عموماً ، وفى كل بلد منها ، كما تدرس التربية فى البلاد الشيوعية عموماً ، وفى كل بلد منها .

وفى ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ، والتربية اليهودية .

أما التربية الإسلامية . . فلم تجد — حتى الآن — فى حدود علمى — من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول ، بأنه لا توجد تربية إسلامية ، لأن الشخصية الإسلامية اليوم ، شخصية ، لا هى إلى الإسلام تنتمى ، ولا هى عن الإسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية شراً على الإسلام ، وخطراً عليه ، أكبر من الشر والخطر الذى يستطيعه أعداء الإسلام أنفسهم .

ومن ثم فالشخصية القومية الإسلامية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هى المدخل الصحيح لفهم التربية الإسلامية ، وإنما المدخل الصحيح لها ، هو تلك الشخصية القومية الإسلامية ، فى عصور الإسلام الأولى .

ولو عاد المسلمون إلى فهم الإسلام من جديد ، كما يجب أن يفهم، لعادوا إلى أنفسهم ، وعادت إليهم قوتهم وعزتهم . . وحضارتهم ، خاصة وأن الدراسة التى قمت بها ، أكدت لى أن الإسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، وأن المسلمين — بالإسلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات، وأنهم — بدونه — عاجزون .

ومن ثم يكون الهدف من السلسلة . . تربوياً خالصاً .

ولكنه هدف . . دينى أيضاً .

فالمسلمون اليوم ، بفعل عوامل متعددة ، لا يعرف الكثيرون منهم عن الإسلام الكثير ، وهم يعرفون عنه ما يعرفه غيرهم لهم ، لا ما يجب أن يعرفوه بأنفسهم ، من مصادره الصحيحة : الكتاب والسنة .

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة . . ذات البريق — الأخاذ — الكثير والكثير . . لأن غيرهم أراد ذلك لهم . . بفعل عوامل متعددة كذلك .

والوظيفة الرئيسية لهذه السلسلة هى : أن تضع الإسلام — بجوانبه المتعددة — وجهاً لوجه — أمام النظم والفلسفات المعاصرة . . لنرى : أيها أقدر على مواجهة تحديات العصر .

وعندما يكتشف المسلم ، أن إسلامه هو القادر على مواجهة تحديات العصر ، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة ، إن هى ألوان من العلاج مؤقتة . . مفلسة ، فإنه - لابد - سيعود إلى نفسه ، ويصالح دينه ، ويقرأ عنه ، ويقف على ما فيه . . وقوفه على ما فى الفلسفات المستوردة : ذات البريق الأخاذ . . الخادع .

وعند هذا الحد ، تقف رسالة السلسلة .

ومن هنا قلت وأصررت ، على أنها ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليدى.
ومن أراد الدين بالمعنى التقليدى ، فكتبه معروفة ، وكتابه معروفون .
ولكن المسلمين الذين أكتب هذه السلسلة لهم ، ليسوا مستعدين — منذ البداية — لأن يضيعوا وقتاً فى قراءة تلك الكتب الدينية ، وفى القراءة لهؤلاء الكتاب المعروفين ، لأن الإسلام - كما فهموه - لا يصح أن يضيعوا فيه وقتاً ، يضيعون أكثر منه فى المذاهب ذات البريق .. الخداع .

وبعد اتضاح معـــالم (الشخصية القومية) الإسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القومية) الأخرى ، التى نراها فى ظل الأيديولوجيات المعاصرة ، من زوايا عديدة .. وذلك خلال هذه السلسلة ، سوف أعود من حيث بدأت ، فألخص ما وصلت إليه ، وأتخذ منه منطلقاً للحديث عن (التربية الإسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبذل فى إعداد هذه السلسلة كبير ، والجهد الذى يجب أن يبذل - بعدها - فى الحديث عن (التربية الإسلامية) كبير .. ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراسة الخاصة بالتربية الإسلامية - بعدها - فى نظرى - أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهون الصعاب ، وعلى الله قصد السبيل .

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : جمادى الأول ١٣٩٦هـ .
— مايـــو ١٩٧٦ م .

وهذا الكتاب . . . الثالث

ما أحسب أني دخلت - وسأدخل - على كتاب من كتب مجموعة (الإسلام وتحديات العصر) ، بذلك التخوف الذى دخلت به ، على هذا الكتاب الثالث.

ذلك أن مضمون هذا الكتاب علمى خاص ، أو هكذا يجب أن يكون ، وأن إعدادى الأول أدبى تربوى ، وليس إعداداً علمياً .

ولذلك فكرت — جاداً - فى إسقاط الكتاب - بعنوانه ومحتواه — من السلسلة ، والانتقال من كتابى الثانى عن (الله والإنسان المعاصر) ، إلى الكتاب التالى — عن (الإنسان فى الإسلام ، والإنسان المعاصر)[1] .

ولكن إسقاط هذا الكتاب من السلسلة ، كان سيؤثر تأثيراً جوهرياً فى مخطط السلسلة كلها فى رأسى ، وهو مخطط لم أرسمه أصلا للسلسلة ، وإنما رسمته لأجمع — من خلالها — ملامح (الشخصية القومية الإسلامية) ، أو (الأيديولوجيا الإسلامية) ، ولأجعل من هذه (الأيديولوجيا الإسلامية) منطلقاً لدراسة التربية الإسلامية ، كما قلت فى مقدمة السلسلة[2] .

ومن ثم ، كان لابد من الاعتماد على الله ، وركوب الصعب .

وبالاعتماد على الله ، تحول الصعب إلى سهل .

فما أحسب أنى وجدت — وسأجد - فى كتاب من كتب السلسلة ، ذلك اليسر الذى وجدته فى هذا الكتاب ، فى كل مرحلة من مراحل ولادته ، ابتداء من جمع مادته العلمية ، وانتهاء بطباعته .

---

(١) هو الكتاب الرابع من السلسلة ، وهو تحت الطبع الآن ، وسيرى النور مع مطلع عام ١٩٧٨ باذن الله .

(٢) ارجع الى ص ٧ - ٩ من الكتاب .

توجهت إلى الزملاء المتخصصين فى الأقسام العلمية بكلية التربية جامعة عين شمس ، أسألهم النصح ، وأطلب منهم أسماء المراجع ، فعدت بالنصح وبأسماء المراجع ، وببعضها أيضاً .

وعدت إلى بيتى ، لأقلب فى كتب مكتبتى الخاصة ، لأجد من المراجع الخاصة بهذا الموضوع فى هذه المكتبة ، ما لم أكن أحلم به ، وكنت قد جمعت هذه المراجع فى مراحل مختلفة من حياتى ، لأكون بها مكتبة .. ولم أكن قد قرأتها ، ويبدو أنى لم أكن سأقرؤها ، لولا هذا الكتاب ، بعد أن جرفنى تخصصى فى التربية ، والتربية المقارنة ، ليحدد معظم قراءاتى فيه .

وجمعت المادة العلمية للكتاب ، ونسقتها ، فإذا بالكون المعقد غاية التعقيد أمامى ، يبدو بسيطاً غاية البساطة ، فأكتب الكتاب .. فى فترة قياسية ، إذا قورن بما سبقه من كتب هذه السلسلة .

ودفعت بالكتاب إلى المطبعة ، فإذا بالجمع يبدأ فيه فوراً ، على غير ما تعودت فى كل كتاب آخر ، فى هذه السلسلة ، أو فى غيرها ، فلقد تأخر ظهور الكتاب الثانى من السلسلة — مثلا — ثلاثة شهور كاملة ، عن الموعد الذى حددته لظهوره ، بسبب .. المطبعة .

وقلت — فى النهاية : الحمد لله ، الذى حول الصعب أمامى .. إلى سهل .

وهذا الكتاب الثالث — كالكتب السابقة والكتب اللاحقة من السلسلة — ليس كتاباً فى الكون ، بالمعنى التقليدى ، سواء فى الدين أو فى العلم ، وإنما هو كتاب له هدف خاص ، مرتبط بالهدف العام للسلسلة ، وهو إظهار قدرة الإسلام ، على مواجهة تحديات العصر .

ولن يستطيع الكتاب أن يصل إلى هذا الهدف ، إلا إذا قام على أساس نظرة علمية واسعة ، بدءاً من الذرة ، والحيوان الوحيد الخلية ، فى قاع الهرم الكونى ، وانتهاء بالكون الواسع ، بكواكبه ونجومه وشموسه .. وسماواته .. والله سبحانه ، على قمة هذا الهرم الكونى .

ومن ثم ، فهو كتاب علمى . . وإن كان ليس علمياً بالمعنى التقليدى .

كذلك ، لن يستطيع الكتاب أن يصل إلى هدفه، إلا إذا قام على أساس نظرة دينية واسعة ، تتصل بالكون ، والحياة والأحياء ، فى كتاب الله عز وجل . . وهى - كما تبينت - موجودة ، وعميقة ، وأكثر علمية وموضوعية . . مما يقول به العلم الحديث ذاته - كما سنرى .

ومن ثم ، فهو كتاب دينى . . وإن كان ليس دينياً بالمعنى التقليدي .

ومن ثم ، فلنختصر القول ، ولنقل : إنه كتاب علمى دينى يتناول (الكون) - موضوع الكتاب — من منظور علمى Scientific دينى .

ولنقل أيضاً : إنه ليس كتاباً علمياً ، يمكن أن يضيف كثيراً إلى المتخصصين فى العلم الخالص ، ولا هو كتاب دينى ، يمكن أن يضيف كثيراً إلى المتخصصين فى الدين ، وإنما هو كتاب يمكن أن يضيف إلى هؤلاء وهؤلاء ، على نحو آخر .

فالعلميون فى عالمنا العربى والإسلامى ، بعيدون — عادة — عن الدين . . وهم - غالباً - يفتخرون بهذا البعد عن الدين ، حتى لقد حول بعضهم بعده عن الدين هذا ، إلى . . خصومة له .

ورجال الدين فى عالمنا العربى والإسلامى ، بعيدون - غالباً - عن العلم الخالص . . . وهم - عادة - يعتبرون أعمال العلماء - رجساً من عمل الشيطان ، وتدخلا من البشر فى خلق الله ، لا يليق .

ومن يقرأ الكتاب ، يخرج بانطباع واحد فى النهاية ، وهو أن بعد هؤلاء العلماء العلميين ، عن أولئك العلماء الدينيين ، فيه إضرار - فى نظرى — بعد دراسة الموضوع - بقضية العلم وقضية الدين على السواء ، لأن كلا منهما - كما رأيته - مكمل للآخر ، لا غنى له عنه .

فهى خصومة مفتعلة ، ولدت فى مجتمعنا الإسلامى ، لأسباب فرضها تاريخ المجتمعات غير الإسلامية ، خاصة تلك المجتمعات الغربية – المسيحية ، واستوردناها نحن من الغرب ، مع ما استوردناه من ملابس وأزياء ، ومظاهر حياة.

وإذا كان لهذه الخصومة منطقها هناك ، فمن حق هؤلاء وهؤلاء ، أن تستمر الخصومة بينهم.

ولكن : مالنا نحن ، ولم تقع هذه الخصومة يوماً فى مجتمعنا الإسلامى ، ولن تقع فى ظل الإسلام .

وإذا ما نجح هذا الكتاب الثالث ، فى إظهار هذه الحقيقة ، فإنه يكون قد أدى رسالته ، كما نجح فى تأديتها شقيقاه الأكبران السابقان : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة ، والله والإنسان المعاصر .

وساعتها ، يمكن لمن أراد من هؤلاء العلماء وهؤلاء ، أن يعود إلى كتب الدين المتصلة بموضوع الكون ، أو إلى كتب العلم المتصلة بنفس الموضوع ، وهى – على الجانبين – الدينى والعلمى – وفيرة وفيرة.

وأرجو أن يكون الله سبحانه ، الذى عليه اعتمدت وتوكلت منذ البداية ، قد وفقنى فيما أردت ، وما فكرت ، وما كتبت ، بحيث أكون قد نجحت فى تأدية الرسالة ، وإليه – منذ البداية – قصدت بهذا العمل ، الذى أرجو أن يجعله خالصاً عنده ، ومنه – وحده – أرجو حسن الجزاء ؟

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ .

— مايو ١٩٧٧ م .

الفصل الأول

هذا الكون

تقديم :

كم هو رائع أن تكون وجهة نظر القرآن الكريم، فى هذا الكون الذى نعيش فيه ، هى هى وجهة نظر العلم الحديث ، التى توصل إليها بعد قرون من البحث العلمى المخلص ، مستخدماً فيها أحدث الوسائل العلمية والتكنولوجية .

ويقرأ الإنسان القرآن الكريم اليوم ، فيحس — بعد أربعة عشر قرناً من نزوله — أنه يتنزل اليوم ، فليس فيه ما يناقض حقيقة أثبتها العلم الحديث ... اللهم إلا إذا كانت هذه (الحقيقة) نفسها، لاتزال أبعد ما تكون عن (الحقيقة) .

أما الحقائق الثابتة .. فيرى صداها فى القرآن الكريم .

وفى هذه القرون الأربعة عشر الماضية ، تغيرت حقائق علمية كثيرة ، وكذب بعض الحقائق بعضاً ، وتضارب العلماء واختلفوا . . والقرآن — الحقيقة الكبرى — هو هو ، على حقائقه ثابت .

وإن دل ذلك على شىء ، فإنما يدل على شىء واحد ، وهو أن هذا الكتاب الكريم : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (١) .

ويزيد من إعجاز هذا الكتاب الكريم : أنه — فيما عرضه من حقائق —

---

(١) قرآن كريم : فصلت — ٤١ : ٤٢ .

عرضها بأسلوب يلائم كل عصر ، فكان يلائم عصر نزول آياته ، وظل يلائم كل عصر تلاه، ثم هو اليوم يلائم العصر الحديث، بمنجزاته العلمية الرائعة ، وسيظل يلائم العلم فى تطوره ، والحياة فى تقدمها .. حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وهكذا تقدم الحقائق وتبلى ، ويظل مابه هو الجديد المتجدد... دوماً .

الانسان والكون :

لو تصور الإنسان نفسه فى هذه الحياة الدنيا ، لوجد نفسه مجرد آدمى واحد ، من مئات الملايين من بنى آدم ، الذين يسكنون هذه الأرض .

وليس هذا الإنسان، هو المخلوق الوحيد الذى يعيش على هذه الأرض، فمعه يعيش عليها . . . حيوانات وطيور . . . ونباتات . . وحشرات . . وميكروبات .. لو هلك صنف منها لهلك ، فوجوده مرتبط بوجودها ، وعلى خيرها يعيش .

ولو فرض وكان الإنسان يملك هذه الأرض كلها ، فما قيمة هذه الأرض التى يعيش عليها كلها ، فى خريطة الكون الواسعة الشاسعة ، التى لاتحدها حدود ؟

وبعبارة أخرى : لو أردت أن تعرف وضعك — كإنسان — فى هذا الكون ، فإن عليك أن تفكر « أولا فى نفسك على الأرض ، ثم فكر فى الأرض باعتبارها من أصغر كواكب المجموعة الشمسية ، ثم فكر فى المجموعة الشمسية كلها باعتبارها جزءاً ضئيلا من المجرة . وأخيراً فكر فى مجموعتنا باعتبارها واحدة من عدة ملايين غيرها »(١).

---

(١) برتا موريس باركر : ما وراء المجموعة الشمسية — ترجمة ادوار رياض — رقم (١٤) من (مجموعة الكتب العلمية المبسطة) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩ ، ص ٢٩ .

وستجد فى النهاية ، أن هذا الإنسان الذى كرمه ربه .. ضعيف تافه .. محدود الإمكانيات .

ومع ذلك ، فكل ما فى هذا الكون فى خدمته هو — كما سنرى .

ومع ذلك — أيضاً — فهو يتيه ويختال .. ويتطاول على الله .. ويكفر بنعمته .

إن علاقة الإنسان بالكون ، لا تقتصر على علاقته بهذه الأرض التى يعيش عليها ، وإنما هى ترتبط بهذا الكون الواسع العريض الذى يعيش فيه ، بأرضه ، ونجومه وشموسه .. ومجراته .. بهذا الكون الذى لا تحده حدود .

ذلك أن « الكون يشمل كل شىء ، فهو يشمل الأحياء والجمادات والذرات والمجموعات النجمية (المجرات)، والعالم الروحى ، والعالم المادى . لأن الكون بمفهومه ، هو كل ما فى الوجود . ويدخل فى نطاق الكون الفضاء المحيط بالأرض ، بما فيه من أجرام سماوية مختلفة ، وما بينها من طاقات عديدة » .

« وقد يظن البعض منا ، أن مظاهر الكون الكبرى لا أهمية لها كثيراً ، بالنسبة لحياتنا العملية ، وأنه إذا فنى كل شىء فى الوجود ماعدا الشمس والأرض والقمر ، فلن يضيرنا ذلك فى شىء ، ولكن ثبت من البحوث والدراسات العديدة ، التى قام بها علماء الفلك والجيولوجيا ، خطأ هذه الفكرة . ذلك أن التقدم الحديث فى علم نظام الكون Cosmology ، يشير بوضوح متزايد ، إلى أن أحوالنا اليومية ، لا يمكن أن تستمر كما هى ، لولا وجود أجزاء الكون البعيدة » (١).

---

(١) دكتور سعيد على غنيمة : أساسيات فى الجيولوجيا : الكونية — المعادن والصخور — الطبيعية — الطبعة الأولى — الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية — ١٩٧٥ ، ص ١٤ .

فكما لا يستطيع الإنسان أن يعيش — على الأرض — بمعزل عنها ، بهوائها وشمسها ونباتها وحيواناتها وحشراتها وميكروباتها .. لا تستطيع الأرض أن تعيش بمعزل عن أمها الشمس ، ولا عن غيرها من الكواكب ، بنات الشمس ، ولا تستطيع المجموعة الشمسية أن تعيش بمعزل عن المجرات السماوية الأخرى .

فهى كلها بمثابة حبات عقد ، لا تنفرط واحدة منها ، إلا واختل العقد كله .

ولن تنفرط حبات العقد إلا يوم يشاء الله .. يوم تقوم الساعة :

— « إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت »(١).

فالكون واسع ، لانهائى ، لا تحده حدود ، ومع ذلك فهو متشابك ومعقد ، ويسير وفق قانون إلهى محكم ، يربط بين أجزائه ، كما ينتظم العقد حباته . وما سيحدث يوم القيامة ، هو أن حبات هذا العقد ستنفرط ، بأمر ربها .

وإذا ما انفرطت حبات العقد ، فإن انفراطها لا يصيب واحدة منها دون الأخرى ، وإنما ينفرط الكل . . ويكون الحساب للكل أيضاً :

— « ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم — إذا يشاء — قدير »(٢) .

— « ونفخ فى الصور ، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون »(٣).

---

(١) قرآن كريم : الانفطار — ٨٢ : ١ — ٥ .
(٢) قرآن كريم : الشورى — ٤٢ : ٢٩ .
(٣) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٦٨ .

ويرى العلامة أينشتين ، أنه لابد « أن يكون للكون ما يشبه المركز ، تبلغ كثافة النجوم فيه أقصاها ، ثم تأخذ فى التناقص كلما ابتعدنا عن المركز ، إلى أن — وذلك بعد أبعاد شاسعة — تتلاشى ، ليتلوها فراغ لانهائى . إن الكون النجمى لابد أن يكون جزيرة ، منتهية فى محيط لا نهائى من الفضاء »(١) .

خلق الكون :

يرى العلماء أن « مادة الكون ، وهى غاز الأيدروجين ، وما يتكون معه وحوله ، خلقت ومازالت تخلق فى الوجود ، من عدم مطلق ، وبطريقة لا يمكن للعلم أن يعرف عنها شيئاً ، أويدرى بظروفها أبداً ، ولاعن مكانها أمراً .. وبذلك فإن السماء أصلا ، قبل أن تخلق فيها وحداتها من النجوم والكواكب والمجرات ، كانت غازاً منتشراً ، به تراب ، وكانت بناء متماسكا من هذا الغاز وما به ، ولكن ، متى بدأ خلق هذا الغاز ، ومن أين ؟ هذا ما لاسبيل إلى معرفته أو التكهن به »(٢) .

وقد أشار القرآن الكريم ذاته إلى هذه البداية الكونية ، فى عبارة غاية فى الدقة والإتقان والإيجاز ، دأبه دائماً ، حيث يقول سبحانه :

— « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أوكرهاً ، قالتا : آتينا طائعين »(٣) .

---

(١) ألبرت أينشتين : النسبية ، النظرية الخاصة والعامة ـ ترجمة : دكتور رمسيس شحاتة ـ راجعه : دكتور محمد مرسى أحمد ـ رقم (٥٥٩) من (الألف كتاب) ـ الطبعة الثانية ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ ١٩٦٧ ، ص ١٠٣ .

(٢) عبد الرزاق نوفل : السماء ، وأهل السماء ـ الطبعة الأولى ـ مطبوعات دار الشعب ـ ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) قرآن كريم : فصلت ـ ٤١ : ١١ .

وتبدو الدقة والإتقان والإيجاز ، فى أن الآية — على اختصارها — تدل على الإرادة الإلهية ، التى تقف وراء هذا (الغاز) الكونى ، الذى منه خلقت كل وحدات الكون ، كما تدل على طبيعة هذا (الغاز) ، فلا أصدق فى الدلالة عليه من كلمة (الدخان) ، « فالغاز الذى يحوى المواد الصلبة العالقة فيه ، وإن كانت لا ترى بالعين المجردة ، هو الدخان ، كما أوردته الآية الشريفة »(١) .

كذلك تبدو الدقة والإتقان والإيجاز فى حرف العطف (ثم) ، الذى يدل على فترة زمنية سبقت هذا (الدخان) ، أو خلق هذا (الغاز)، وأن هذه الفترة الزمنية ليست بالفترة القصيرة ، وإنما هى فترة طويلة .

كذلك يرى بعض العلماء ، أن « النظام الشمسى ، الذى تؤلف الأرض جزءاً منه ، إنما كان فى الأصل جزءاً صغيراً جد الصغر ، من كتلة سديمية هائلة الحجم ، عظيمة الأبعاد ، تهشمت ، فتناثرت منها شموس كبيرة ، وما شمسنا إلا إحدى هذه الشموس ، فلما اقترب منها نجم ضال ، حدث جذب مدى على جرم الشمس ، فخرج منه ذراع ، انعقدت فيه كتل ، كانت فيما بعد الأرض وأخواتها من السيارات »(٢) .

وواضح أن القائلين بذلك ،هم أصحاب التفسير المادى للكون والحياة — وهو لا يعدو أن يكون مجرد وجهة نظر ، من وجهات النظر العديدة التى أوردناها — ونوردها — فى هذا المجال .

كما يرى بعض العلماء ،أنه «قبل خلق الإنسان بآلاف الملايين من السنين،

---

(١) عبد الرزاق نوفل : السماء وأهل السماء (المرجع الأسبق) ، ص ٣١ .

(٢) تشارلز داروين : أصل الأنواع — الجزء الأول — ترجمة اسماعيل مظهر — مراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ص ٣٦ — من مقدمة المترجم .

كان فى الفضاء سحابة عظمى، من الغبار والغاز، تدوم حوم جرمها الجبار، ثم أخذت تلكم السحابة تتكثف وتنكمش فى بطء، تحت تأثير قوة الجاذبية التى تتولد فيها، وبالتالى تزداد سرعة تدويمها حول نفسها، فترتفع درجة حرارتها ... » . « ثم مرت دهور طويلة، حتى تجمعت مادة هذه السحابة أو معظمها، حول نقطتين، فتكون منهما نجمان كبيران، يدور كل منهما حول الآخر » . « ولم يكن توزيع مادة السحابة الأولى عدلا بين النجمين الناشئين، فكان أحدهما أكبر حجماً، وأثقل مادة من الآخر، مما جعله ينوء بمادته، ولا يجد فى احتراقه الداخلى المعين الكافى من الطاقة، التى تعول هذا الجرم الضخم، فانتهى بعد دهور طويلة، إلى الانهيار والانفجار »(١) .

ويرى هؤلاء العلماء، أن النجم الذى لم ينفجر كان هو الشمس، وأن النجم الذى انفجر « التف عن كثب حول الشمس، وأخذ يدور حولها . وأخيراً تماسكت أطراف تلك الغازات والسحب، وانفصلت فى حلقات، وطفقت مادة كل حلقة منها تتركز، حتى صارت فى هيئة كرة ضخمة من الغاز، أخذت تبرد شيئاً فشيئاً، وتكون كوكباً يدور حول الشمس . واستقرت إحدى هذه الكرات فى فلك لها، يبعد الآن مسافة ١٥٠ مليون كيلومتر من الشمس، تلكم هى الأرض» .

« ولما بلغت (أى الأرض) من العمر بضعة ملايين من السنين، كانت قد تكونت لها قشرة صخرية صلبة رقيقة نسبياً، وكانت تتم الدورة الواحدة حول محـــورها فى أربع ساعات فقط، لا أربع وعشرين، كما هى الحال الآن »(٢) .

---

(١) الدكتور محمد يوسف حسن : قصـــة كوكب — رقم (٦٨) من (المكتبـــة الثقـــافية) — دار القـــلم بالقـــاهرة — أول سبتمبر ١٩٦٢، ص ٤٨، ٤٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩، ٥٠ .

إلا أن فريقاً من العلماء يرى أن «الشمس لم تكن أماً للكواكب السيارة فى يوم من الأيام ، بدليل أن الجزء الأكبر من مادة الأرض مثلا ، يتكون من مواد معينة ثقيلة ، مثل الحديد والكالسيوم والمغنسيوم والسليكون والألومينيوم . . وهى لا تتواجد بهذه النسب العالية فى الشمس ، التى سواد مادتها من الأيدروجين ، ورماده بعد التفجير الذرى ، وهو الهيليوم »(١).

ويرى هذا الفريق من العلماء، أن هذه الحقيقة تقود إلى حقيقة أخرى ، وهى أن « الأرض وأمثالها من الكواكب ، حادثات تدخل إلى الكون أنواعاً من المادة ، تختلف فى مجموعها كثيراً عما يسود داخل الشموس ، ونحبذ أن تكون من نتاج انفجارات النجوم فوق البراقة » ، وأنه « عندما يستنفذ جميع الأيدروجين الذى فى النجم ، تنقطع بذلك إمدادات الطاقة فيه ، إلا أنها تستمر تنطلق من المركز إلى السطح ، حيث تفقد بالإشعاع المستمر ، فيتداعى النجم من الداخل ، وينهار على نفسه ، وتتضاغط بذلك مكوناته ، وترتفع درجة حرارتها بالتضاغط ، فتصل حداً يفوق الوصف والخيال . ويعمل الضغط العالى والحرارة المرتفعة ، على تكوين العناصر الثقيلة داخل النجم .

وكلما تداعى النجم وانكمش على نفسه ، ازدادت سرعة دورانه . ويتبع ذلك حتماً ازدياد القوة الطاردة المركزية ، التى تعمل على طرد أجزاء جسم النجم الساخن ، بعيداً عن المركز . وعندما لا تقوى قوة الجاذبية على العمل على تماسك أجزاء النجم ، يتم الانفجار » .

« وبديهى أن أصل ذلك النجم الجبار الذى انفجر ، وتكونت منه

---

(١) الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الفضاء الكونى — رقم (٣٧) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — ١٥ مايو ١٩٦١ ، ص ٢٥ .

مجموعتنا الشمسية ، كان قريناً لشمسنا الحالية . وكثير من الشموس التى فى السماء اليوم ،لها توابعها ، من مثل هذه النجوم المتفجرة »(١) .

ومعنى ذلك أننا — فيما يتصل بخلق الكون — أمام وجهات نظر ثلاث أو أكثر :

— وجهة نظر، ترى بداية الكون سديماً تهشم ، فتناثر شموساً كثيرة ، كونت كل منها حولها نجوماً تدور حولها — بما فيها أرضنا وشمسنا .

— ووجهة نظر أخرى ، ترى بداية الكون ذلك الغـــاز الكونى (الأيدروجين) ، ومنـه تفجرت الشموس ، وحول الشموس تكونت النجوم ، كأرضنا حول شمسنا .

— ووجهة نظر ثالثة ، ترى الأرض وغيرها من النجوم ، بداية لهذا الكون . . ثم كانت الشموس ، التى تؤلف كل منها بين مجموعة من النجوم .

ووجهات النظر الثلاث وغيرها ، وجهات نظر تستند على أسس علمية فى بعض جوانبها ، وعلى أساس الحدس والتخمين فى بعضها الآخر .

والقرآن الكريم لا يقف من هذه القضية المصيرية صامتاً ، ولكنه يقول فيها رأيه ، وهو يعرضه فى مواقف مختلفة ، وأماكن مختلفة ، وبصور مختلفة .

والقرآن الكريم فيما يعرضه من حقائق كونية ، لا يعرضها كحقائق لذاتها ، لأنه ليس كتاباً كونياً ، مكتوباً للمهتمين بالفلك وحدهم ، كما أنه ليس كتاباً اقتصادياً ، مكتوباً لرجال الاقتصاد وحدهم ، أو كتاباً سياسياً ، مكتوباً لرجال السياسة وحدهم . وإنما هو كتاب (إنسانى) ، بمعنى أنه يدور حول « (الإنسان) ، من حيث هو مخلوق عاقل ، فضله الله على سائر خلقه ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ — ٢٧ .

ولن يكون مستحقاً لهذا التفضيل ، الذى فضله به ، إلا إذا كان أهلا له ، ولن يكون أهلا له ، إلا إذا كان إيجابياً فى حياته ، قادراً على السيطرة على بيئته ، وتسخيرها لخدمته ، فى إطار من الحق والعدل والخير والجمال »(١)، ومن ثم يمتزج فيه « فكر تربوى » ، « بفكر سياسى واقتصادى واجتماعى وتاريخى وحضارى، يشكل كله الإطار العام للأيديولوجيا الإسلامية»(٢) .

فالحقائق الكونية — كغيرها من الحقائق — ترد فى القرآن الكريم ، بقدر ماتخدم هذا الإطار العام ، وتوضحه وتجليه ، وهى لاترد فيه لذواتها. ومع ذلك فهى حقائق ، يوردها من لا يعرفها غيره سبحانه :

— « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وماكنت متخذ المضلين عضداً »(٣) .

وتتفق وجهات النظر السابقة فى خلق الكون ، مع وجهة نظر القرآن الكريم ، فى بعض الجوانب ، وتختلف معها فى بعضها الآخر . يقول الله تعالى :

— «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ، وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون »(٤) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : « الأيديولوجيا والتربية فى الاسلام » — الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس — بأقلام نخبة من أساتذة التربية وعلم النفس — المجلد الثالث — دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة — ١٩٧٦ ، ص ٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٣) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٥١ .

(٤) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٣٠ — ٣٣ .

تتفق وجهات النظر السابقة مع القرآن ، فى أن الأرض جزء من السماء ، انفصلت عنه ، وفى أن السماء سقف محفوظ ، يقى الأرض ويحميها ، ويحفظ لها وفيها الحياة ، وفى مسألة الليل والنهار والشمس والقمر ، وفى الفلك الذى يسبح فيه كل نجم من نجوم السماء .

إلا أنها تختلف فى مسألة الماء ، الذى جعل منه الله سبحانه كل شىء حى ، لا فى الأرض وحدها ، ولكن فى السموات أيضاً .

فالعلم الحديث لا يرى أصلا للوجود سوى الغازات ، خاصة غاز الإيدروجين ، والإسلام لا يرى له أصلا سوى الماء .

وقد يلتقى القرآن والعلم الحديث رغم ذلك ، فيكون الماء القرآنى ، هو الماء فى صورته الأولية (الغازية) ، لأن الماء يتكون أصلا من ذرتين من الإيدروجين ، اتحدتا مع ذرة من الأوكسجين .

ولكنهما قد لا يلتقيان ، ولا ضير على القرآن إذا لم يلتقيا ، وإنما الضير كله — كما سنرى فيما بعد — على العلم الحديث .

وأكثر من ذلك أن القرآن الكريم يرى أن عرش الله كان على الماء :

— « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(١) .

فالقرآن الكريم يعلنها صراحة ، « أن الله تعالى حين أراد أن يخلق الوجود ، ويفطر السموات والأرض ، كان عرشه على الماء ، وأودع فى كل شىء علمه وقدره منذ الأزل ، وأثبته فى كتاب » . « ولما شاءت إرادته ، وكل الأشياء سابقة ومقدرة فى علمه — أن يخلق شيئاً ، تكون له الحياة ،

---

(١) قرآن كريم : هود — ١١ : ٧ .

وتكون حياته فى الأرض التى سيخلق فيها » ـ « بدأ فى خلق السموات والأرض ، فخلقها فى ستة أيام »(١) .

والعلم الحديث فى هذه المسألة، لازال فى أول طريقه الطويل إلى الكون .. وعليه أن يبحث هذه المسألة ، ليعدل مساره وخطواته فيها ، وليس على القرآن حرج فى أن يختلف معه فيها ، فالتطور التاريخى يؤكد أن العلم يعدل مساره دائماً ، ليلتقى فى كل حقيقة مع القرآن الكريم ، وأنه لا يختلف فى حقيقة كونية أو غير كونية ، مع القرآن ، إلا إذا كان مختلفاً مع الحقيقة ذاتها(٢) .

وربما كانت وجهة الاختلاف الأساسية بين القرآن والعلم الحديث ، هو أن العلم الحديث يقوم على أساس تطور (تلقائى) فى الكون ، نتج عنه الأرض والسماء والشمس والقمر ، وهذا الكون الذى لا تحده حدود .. بينما القرآن الكريم يرى أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى خلق ذلك كله ... وفى ستة أيام ، منها يومان(٣) ، خلق فيهما السموات السبع :

— « قل : أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء

(١) خليل طاهر : الأديان والانسان ، منذ مهبط آدم ، حتى : اليهودية ـ المسيحية ـ الاسلام ـ قدم له وراجعه : فضيلة الامام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود ـ دار الفكر والفن ـ ١٩٧٦ ، ص ٣٨ .

(٢) واضح هنا أننا ضد أولئك الذين يلهثون جريا وراء منجزات العلم الحديث ، ليفسروا به القرآن الكريم ، وما به من حقائق كونية ، وذلك لأن العلم فى تطور مستمر ، وما هو صحيح اليوم ، قد يكون غير صحيح غدا ـ بينما القرآن الكريم ثابت على حقه ، قبل أن يولد العلم الحديث بقرون طويلة .

(٣) لنا عود الى هذه الأيام مرة ثانية فى الفصل التالى ، لنناقش ما اذا كانت أياما كأيامنا نحن على الأرض ، أم لا .

وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم »(١)

والآيات هنا تميز بين سمائنا الدنيا ، التى تلتف حول أرضنا ، أو التى تحيط بمجموعتنا الشمسية ، وبين السموات السبع الأخرى .

ولنا إلى هذا الموضوع — تطور الكون أو خلقه — عود ، فى نهاية هذا الكتاب بإذن الله .

وحدة الكون :

ويرى العلم الحديث ، أن الذرة « هى وحدة البناء فى كل الأكوان ... فأجسامنا من ذرات ، والماء والهواء والجبال والأرض من ذرات ، والأقمار المتلألئة ، والكواكب الدوارة ، والشموس الساطعة ، والأجرام السماوية الضخمة .. وما بينها .. أساس بنائها ذرات »(٢) .

والذرات أجسام غاية فى الصغر ، بحيث أنه « لو تراصت عشرة ملايين ذرة من ذرات الأيدروجين فى طابور ، لما بلغ طوله ملليمتراً واحداً فقط ! ولو كنت عطشاناً ، وتجرعت لتراً من الماء ، فإن ما تجرعته يحتوى على عدد من الذرات ، تساوى عدد حبيبات الرمل التى تغطى سطح الكرة الأرضية كلها — بما فى ذلك المحيطات والبحار — وبسمك يصل إلى ٣٠ سنتيمتراً !! »(٣).

---

(١) قرآن كريم : فصلت — ٤١ : ٩ — ١٢ .

(١) الدكتور عبد المحسن صالح : دورات الحياة — رقم (٧٦) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول يناير ١٩٦٣ ، ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨ .

وهذا الجسم المتناهى فى الصغر ، المسمى بالذرة ، يتكون «من نواة» ، «والنواة مبنية من أحجار أدق ، بعضها بروتونات (جسيمات كهربائية موجبة)، وبعضها نيوترونات (جسيمات متعادلة) ، ويدور حولها على مسافة بعيدة (نسبياً) إليكترونات (جسيمات كهربائية سالبة)»(١) .

ومعظم الذرة فراغ ، تدور فيه أجسامها الصلبة ، حتى أن نسبة المادة الصلبة التى تبنيها، للفراغ الذى تدور فيه الإلكترونات ، هو بنسبة « واحد إلى ألف مليون » (٢) .

تصور قدرة الله فيما عرض من حقائق عن الذرة . . ثم تصورها فيما يلى أيضاً .

ويرى العلم الحديث أن « الإليكترون ، من أصغر الجسيمات الذرية ، ووزنه أقل من وزن البروتون بحوالى ١٨٤٠ مرة ، ولكن دورانه حول نواته ، أكبر من دوران أى شىء عرفه البشر ، وعرفته السموات » ، فهو يدور « ٧٠٠٠ مليون مليون دورة فى الثانية الواحدة »(٣) .

ويفسر العلم الحديث ذلك بقوله : إن « الإليكترون سالب ، والنواة موجبة ، والموجب يجذب السالب ، كما يجذب المغناطيس الحديد ، وكان لابد للإليكترون أن يدور ، حتى لا ينجذب إلى نواته ، وكان لا بد أن يتخذ لنفسه مدارات بعيدة جداً (الأمور هنا نسبية) عن نواته ، وقد قدرت المسافات على ضآلتها ، وحسبت الدورات على ضخامتها ، لكى تتوازن الأمور فى الذرة ، كما تتوازن الأمور فى السماوات !

(١) المرجع السابق ، ص ٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ ، ١٥ .

وهكذا بنى أصغر شىء فى الوجود ، وهكذا صممت الأحجار ، أو الذرات ، التى بنيت بها الأكوان ، على نفس فكرة المجموعات الشمسية والمجرات ، التى تكررت فى الذرة . إنها لمعجزة أن يكون أصغر ما فى الوجود، قد بنى على نفس فكرة أكبر ما فى الوجود »(١) .

ومعجزة (وحدة الكون) ، أو (وحدة الوجود) هذه ، هى معجزة المعجزات ، لا فى هذا الكون ، ولكن فى خالقه سبحانه .

ولم يكن غريباً ، أن يلفت القرآن الكريم النظر ، مرات ومرات ، إلى هذه الوحدة ، فى مثل قوله تعالى :

ـ « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ وفى السماء رزقكم وماتوعدون »(٢).

ـ « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بنـــاها . والأرض وما طحاها . ونفس وماسواها »(٣) .

وهى آيات ، نرى فيها وحدة ، أرادها الله سبحانه فى بناء الآية ، بين الإنسان ، الذى يتجه إليه الخطاب ، وبين الأرض من تحته ، والسماء من فوقه ، لتتحقق فى ذاته (وحدة الكون) هذه ، وتتحقق بعدها — ومن خلالها — فكرة الإيمان بالله ، خالق هذا الكون ومدبر أمره ، سبحانه .

كذلك يرى العلم الحديث ، أن الإليكترونات (العناصر السالبة فى الذرة)، لا بد أن تدور ، وأنها فى دورانها ، تختلف من ذرة إلى ذرة ، فذرة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦

(٢) قرآن كريم : الذاريات — ٥١ : ٢٠ — ٢٢ .

(٣) قرآن كريم : الشمس — ٩١ : ١ — ٧ .

الأيدروجين « تتكون من نواة موجبة التكهرب ، يدور حولها كهرب سالب يسمى الإلكترون » ، « أما ذرة (الهليوم) ، التى تلى (الأيدروجين) فى ترتيب العناصر ، فهى تتكون من نواة ، ومن كهربين ، يدوران حولها فى مدار ، والعنصر الثالث (الليثيوم) ، يتكون من نواة وثلاث كهارب ... » ، وهكذا ، وأنه « من الطريف أن هذه الصورة للذرة ، تشبه حركة الكواكب حول الشمس ، فالنواة تمثل الشمس ، والكهارب تمثل الكواكب »(١).

وتتحد الذرات بعضها ببعض ، فى صور مختلفة ، لتشكل لنا الحياة . فذرة من الكلور (المميت) ، تتحد بذرة من الصوديوم (الحارق) ، لتعطينا كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) . وذرتان من الأيدروجين (المحترق) ، تتحدان بذرة من الأوكسجين (الحارق) ، لتعطينا الماء الذى نشربه . وثلاث ذرات من النيتروجين ، تتحد بذرتين من الإيدروجين ، لتعطينا النشادر ، وهكذا .

« وهكذا نتدرج فى هذه الروابط الذرية الإليكترونية ، لندخل من عالم الذرات إلى عالم الجزئيات » ، حيث تتكون « بنايات جزئية من ملايين فوق ملايين »(٢) ... هى التى تكون الحياة من حولنا ، فى هذا الكون الواسع الفسيح كله ، لا فى الأرض وحدها ، ولا فى المجموعة الشمسية وحدها .

« ويقدر بعض العلماء ، أن ما فى جسم الإنسان من أنواع البروتينات المختلفة فقط ، ما يربو عددها على عشرات الألوف من الموديلات ، إن لم

---

(١) الدكتور عبد الحميد سماحة ، والدكتور عدلى سلامة : الفلك والحياة — رقم (٥١) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — ١٥ ديسمبر ١٩٦١ ، ص ٦٣ .

(٢) الدكتور عبد المحسن صالح : دورات الحياة (مرجع سابق) ، ص ٢٣ .

تكن مائة ألف نوع . والبروتين هنا لا يتكون إلا من كربون وإيدروجين وأوكسجين ونيتروجين ، وقد يكون معها فوسفور أو كبريت ، وقد لا يكون » (١).

ونفس هذه العناصر الموجودة فى جسم الإنسان ، وهى الكربون والأيدروجين والأكسجين والنيتروجين والفوسفور ... هى العناصر الأساسية ، التى يتشكل منها الكون من حولنا ، فهى تتشكل بصورة معينة لتكون إنساناً ، وبصورة أخرى لتكون جملا أو حماراً ، وبصورة ثالثة لتكون حشرة أو ميكروباً ... وهكذا ، وهى « تتراص بطرق هندسية ، وتتشابك بقوانين خاصة ، وتتجه بمسافات محددة ، وتنفرج بزوايا معينة ، وكأن هناك مهندساً يصمم مدينة مثالية قائمة بذاتها ، مستخدماً فى ذلك أحجاراً (ذرات) ، ليبنى منها عمارات (جزيئات) ، وتتجمع العمارات على هيئة مترابطة متسقة ، لتخلق مدينة ، تسرى فيها الحياة .. هى النواة » .

« وما أروع منظر الخلية الحية وأنت تنظر إليها من خلال الميكروسكوب ، فتجد النواة تتوسطها ، أو فى ركن منها ، ثم تجد السيتوبلازم الحى يدور حولها ، ويطوف برحابها »(٢).

« وفى نواة الخلية أسرار ، لا تقل شأناً عن أسرار السماوات . وكلتاهما على أية حال ... سر تطويه المسافات الشاسعة ، التى تفصلنا عن نجوم السماء ، وسر تطويه دقة أحجار البناء فى نواة الخلية وما حولها ، فلا نعرف : كيف بنيت السماء ، ولا كيف تراكبت الذرات فى الخلية ، وإلا لكنا عرفنا سر الحياة »(٣).

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣١ .

سر الحيـاة :

رأينا أن (الذرة) هى أساس هذا الكون ، وأنه من تشكيلاتها المختلفة، تتشكل الحياة ، ويتشكل الأحياء ، ابتداء من الميكروب .. وانتهاء بهذا الكون الواسع الفسيح .

وأساس التركيب الذرى للحياة ، هو (الدوران) ، فكل ما فى الحياة يدور ، كما يدور الإليكترون حول نواة الذرة ، وبدون (الدوران) ، تنجذب الأجزاء إلى بعضها .. وتتوقف الحياة .

« والأرض بالنسبة للشمس ، كالإلكترون بالنسبة إلى نواة الذرة ، فكما يدور الإليكترون حول نواته ، حتى لا ينجذب إليها ، كان لا بد للأرض أن تدور حول شمسها ، حتى لا تنجذب إليها ، وتضيع فى أتونها المتوهج .

وللأرض تابع يدور حولها ، هو القمر » .

« والكواكب الثمانية تدور ، كما تدور الأرض تماماً .. حول نفسها تارة ، وحول الشمس فى مدارات متباعدة ، تارة أخرى .

والشمس بدورها تدور حول محورها ، ثم تصحب الكواكب التسعة ، وتدور بهم فى مجرتها »(١) .

وأقرب المجرات إلى مجرتنا مجرتان ، « تبعدان حوالى ١٥٠ ألف سنة ضوئية »(٢) ، يقال « إنهما قد يكونان بمثابة تابعين لمجرتنا ، يدوران حولها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
(٢) السنة الضوئية وحدة لقياس المسافات المتناهية البعد ، وهى ستة ملايين مليون ميل ، اذ أن الضوء ينتقل بسرعة ١٨٦٫٠٠٠ ميل فى الثانية .

وعلى بعد مليونين من السنوات الضوئية ، يوجد سديم حلزونى ، وهو أكبر من مجرتنا مرتين ، ثم يتبع هذا ، على بعد مسافات شاسعة ، تقدر بمئات وآلاف الملايين من السنوات الضوئية ، تنتشر ملايين المجرات ، وهى تجرى وتسبح وتدور بنجومها ، كما تدور مجرتنا بنجومها .

إذن . . فكل شيء فى الكون يدور (وكل فى فلك يسبحون) »(١) .

« لأن النجوم لو توقفت عن الدوران ، لتجاذبت والتحمت ، وحل الخراب بالكون » (٢) .

بيد أن مجرد وجود النواة والإلكترون ، لا يهبان الشيء الحياة .

وبعبارة أخرى ، وصل العلم إلى حقيقة أساسية ، وهى استحالة « نشوء الحياة ذاتياً من مواد خامدة » (٣) ، وأن « الأحياء الدقيقة تنشأ فقط ، من خلايا حية مماثلة ، موجودة من قبل » (٤) .

وحيوية الخلايا ، أو الحياة الموجودة فيها ، لازالت أمراً يقف العلم حائراً أمامه ، فهو « لم يتوصل بعد إلى كشف هذا السر الأعظم ، المعروف بالحياة ، كما يتضح أن هذه المشكلة هى أبعد مدى من أن تكون مجرد بناء مواد عضوية معينة ، وظواهر طبيعة وكيميائية خاصة » (٥) .

وهو رد يرد به العلم نفسه ، على من يدعون بأن الكون خلق نفسه بنفسه ،

---

(١) الدكتور عبد المحسن صالح (المرجع السابق) ، ص ١٥٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(٣) ويليام بوين سارلز : علم الأحياء الدقيقة — ترجمة دكتور صلاح الدين طه وآخرين — مراجعة يونس سالم ثابت — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٢ ، ص ٥٣٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٣٤ .
(٥) الدكتور أنور عبد العليم : قصة التطور — رقم (٤) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم ومكتبة النهضة ، ص ٢١ ، ٢٢ .

وبأن الحياة نشأت — وتنشأ — ذاتياً ، دون تدخل من قوة عظمى ، وهبت — وتهب — الحياة .

وعند (الروح) ، سر الحياة . . لا يزال العلم يقف عاجزاً ، يحنى رأسه ، إما إقراراً بعظمة الله واقتداره . . وإما حياء وخجلا ، إن لم يعترف بقدرة الله .

فالروح سر من أسرار الله وحده . . لا يستطيع العلم أن يقترب منه ، مهما تقدمت وسائله وإمكانياته :

— « يسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) .

عوالم .. فى عالم :

ليس الكون على ذلك بسيطاً ، بل هو معقد غاية التعقيد . فهناك — على الأرض — عالم الميكروبات ، وعالم الحشرات ، وعالم الحيوانات ، وعالم النبات .. وهناك عالم المعادن فى باطن الأرض ، وهناك . . وهناك . . .

وكل مخلوق من هذه المخلوقات . . عالم مستقل ، قائم بذاته .

والأرض نفسها جزء من عالم أكبر ، هو عالم المجموعة الشمسية .

والمجموعة الشمسية جزء من مجرة تتبعها .

ومجرتنا واحدة من مجرات عديدة ، تملأ السماء .

ورغم ذلك ، فأساس هذه العوالم كلها هو (الذرة) ، بنواتها وإليكترونها .. وما بها من فراغ .

وتدور عجلة الذرة .. فتدور عجلة الحياة بدورانها .

---

(١) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ٨٥ .

وبدون دوران الذرة ، فى أصغر الكائنات الحية وفى أكبرها على السواء ، تتوقف الحياة ، بل تتحطم وتتهشم . . ويكون خراب .

وذلك كائن لا محالة يوم البعث الأكبر . لابد أن يتوقف المصنع الضخم اللا متناهى فى ضخامته . . البسيط اللامتناهى فى بساطته ، ليقوم على أشلائه مصنع جديد ... مصنع لا يتحطم ولا يتهشم ، تستمر فيه الحياة وتخلد .

والمصنع الكونى ، الذى نعيش فيه حياتنا الدنيا هذه ، مصنع متكامل متشابك . . معقد غاية التعقيد ، يتأثر فيه الإنسان بما فى داخله من عالم . . الميكروبات ، وبما حوله من عوالم : الحيوان والنبات ، والهواء ، والشمس والقمر ، كما يتأثر بما حول مجموعته الشمسية من مجموعات شمسية أخرى ، فى داخل مجرتنا ، وبما حول مجرتنا من مجرات ، تملأ هذا الكون اللا محدود .

ولا يمكن أن يكون هذا المصنع الكونى الضخم ، على هذا النحو من التعقيد ، وعلى هذا النحو من البساطة فى نفس الوقت . . إلا أن تكون وراءه قوة غير محدودة ، هى قوة الله العظيم خالقه .. بتعقيده وبساطته :

— « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم . وقالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون . بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن ، فيكون »(١) .

— « بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خلق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١١٥ — ١١٧ .

يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »(١) .

وهذا المصنع الكونى الضخم ، المعقد البسيط ، موجود لا شك فى وجوده ، وكل ما يستطيعه العلم اليوم ، رغم تقدمه واقتداره ، هو أن يكتشف ذرة منه فى إثر ذرة . . أما المصنع كله ، ببقية ذراته التى لا تنتهى ، فلن يستطيع العلم أن يلم بها ، مهما بذل ، لأن إدراك اللا منتهى شىء مستحيل ، ولو استمرت حياة الإنسان على هذه الأرض بلايين البلايين من السنين .

ثم إن هذا المصنع الكونى الضخم ، لا قيمة له ، بدون هبة الله الكبرى لمن فيه وما فيه . . وهى الروح .

وبدون هذه الروح . . فى كل الكائنات الحية ، تتحول الذرات إلى أنقاض . . تماماً كما تتحول أجزاء المصنع — بدون طاقة محركة — إلى (خردة) .

وكأن الروح — هبة الله هذه — هى مصدر الحياة فى هذا الكون . . وليس هذا الكون فى حد ذاته . . رغم إتقانه وبديع هندسته .

فالله سبحانه ، الذى خلق الكون وأحسن صنعه ، هو هو سبحانه الذى وهبه الروح ، فكانت الحياة ... وهو هو سبحانه القادر على أن يسلبه — أو يسلب جزءاً منه — طاقته المحركة هذه .. فتتوقف الحياة .

ولم يكن غريباً ، أن يتحدى القرآن الكريم الناس — كل الناس — بأن تخلق آلهتها المدعاة . . مجرد ذبابة :

— « يأيها الناس : ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه

(١) قرآن كريم : الأنعام — ٦ : ١٠١ — ١٠٣ .

منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز »(١).

ولاختيار الذبابة للتحدى — فى تصورى — حكمة ، فهى ليست دقيقة بحيث لا ترى ، كما هو الحال فى الميكروب مثلا ، وهى ليست ضخمة فتعجز ، كالفيل مثلا ، ولكنها تملأ الكون من حولنا ، وهى صغيرة وفى متناول اليد .. وهى — فوق ذلك كله — تبدو كما لو كانت تخلق تلقائياً . . من القمامة التى تملأ الحياة من حولنا .

ولكن الآلهة القديمة عجزت عن خلق ذبابة . . كما عجزت الآلهة الحديثة عن خلقها .. سواء كانت هذه الآلهة الجديدة هى العقل . . أو العلم . . أو التكنولوجيا . . . أو بشر ممن خلق الله .

---

(١) قرآن كريم : الحج — ٢٢ : ٧٣ ، ٧٤ .

الفصل الثانى

الحياة . . على الأرض

تقـديم :

وأقرب أجزاء هذا الكون . . الواسع . . اللامتناهى . . الذى نعيش فيه ، هو هذه الأرض التى نعيش عليها .

ومن ثم كان منطقياً ، أن نتخذ منها منطلقاً لدراسة هذا الكون المحيط بنا ، فما يهمنا نحن بنى آدم من هذا الكون ، هو الأرض التى نعيش عليها ، وبقدر أهمية عناصر الكون الأخرى لنا فى أرضنا هذه . . تكون أهمية هذه العناصر فى الدراسة .

وهى ليست دعوة إلى إيقاف دراسة الكون ، لأن دراسة الكون فى عالمنا المعاصر ، أصبحت تفرض نفسها على بلاد العالم اليوم ، خاصة بعد غزو الفضاء ، وما أتى به هذا الغزو من فوائد عملية ، تتصل بالاتصالات اللاسلكية والتليفزيونية ، وبالتنبؤ بالأحوال الجوية ، وتتصل — بعد ذلك — ونتيجة له — بأمن كل بلد ، لما لهذه المعلومات من فائدة استراتيجية واضحة .

وإنما هى تحديد لمسار الدراسة ، فى هذا الكتاب الثالث ، من هذه السلسلة ، ليس إلا .

الأرض وأخواتها :

رأينا فى الفصل الأول ، أن أرضنا « التى نعيش فوق سطحها ، ليست إلا تابعاً صغيراً للشمس ، مثلها فى ذلك مثل باقى الكواكب السيارة الأخرى » ، وأنها « تتحرك فى تجمع هائل ، يزيد عدد الأجرام فيه ، على عشرات البلايين

من النجوم » ، وأن هذا الحشد والتجمع النجومى الهائل ، هو ما نسميه بالمجرة .. وهى واحدة من عدد لا ينتهى من المجرات ، تسبح فى الكون، على أبعاد كبيرة من بعضها البعض »(١) .

والشمس ، أم المجموعة الشمسية ، التى تنتمى إليها الأرض، هى «إحدى النجوم فى مدينة نجمية عظيمة ، وتتكون المدينة النجمية من ٤٠٫٠٠٠ مليون نجم على الأقل »(٢) ، كما توجد ملايين الملايين من المدن النجمية الأخرى ، وربما كان هناك أكثر من بليون . ويمكنك أن ترى أن إحصاء كل النجوم فى الكون كله، سيكون أشبه بإحصاء كل ذرة من الرمل على جميع شواطئ بحار العالم »(٣) .

وتعتبر الشمس ، كنجم ، متوسطة الحجم ، فهى « أكبر من بعض النجوم الأقزام ، وأصغر بكثير من النجوم العمالقة » .

« أما إذا قارنا الشمس بالأرض ، فالشمس عملاق كبير ، إذ يبلغ قطرها ١٠٩ مرات قدر قطر الأرض ، وحجمها ١٣٠٠٠٠٠ مرة ؛ مثل حجم الأرض ، أما كتلتها ، فهى أكبر من كتلة الأرض بنحو ٣٣٠ ألف مرة ، والرجل الذى يزن ٧١ كيلو جراماً على سطح الأرض، يزن طنين على سطح الشمس » (٤) .

وتتكون المجموعة الشمسية من تسعة كواكب كبيرة، مضافاً إليها « أكثر

---

(١) عبد الرزاق نوفل : السماء وأهل السماء (مرجع سابق) ، ص ٨٣ .

(٢) برتا موريس باركر : : ماوراء المجموعة الشمسية (مرجع سابق)، ص ٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٤) الدكتور عبد الحميد سماحة ، والدكتور عدلى سلامة (مرجع سابق) ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

من ألف كوكب صغير جداً ، ثم هناك أيضاً ملايين من الشهب ، ومئات من تلك الأجرام السماوية العجيبة ، التى تسمى (المذنبات) . ثم إن معظم الكواكب الكبيرة لها أقمار ، تدور حولها ، كما تدور حول الشمس »(١) .

وتختلف الكواكب التسعة فيما بينها ... فى كل شىء .

وأصغر هذه الكواكب ، وأقربها إلى الشمس ، هو عطارد ، « ويبلغ قطره : ٤٨٥٠ كيلو متراً ، وبعده عن الشمس ٥٨ مليون كيلو متر » . وهو « أسرع الكواكب دوارناً حول الشمس ، فهو يقطع الدورة الكاملة حوله فيما يساوى ٨٨ يوماً من أيام الأرض » (٢) . وليست هناك أقمـــار تتبع هذا الكوكب الصغير ، كما أنه لا يدور حول نفسه ، كما تفعل بقية الكواكب ، وذلك لقربه من الشمس ، وإنما هو يدور حول الشمس فقط ، كما يفعل القمر فى دورانه حول الأرض ، وعدم دوانه حول نفسه .

ويلى كوكب عطارد ، كوكب الزهرة ، أو فينوس Venus ، « وقطرها يبلغ ١٢٣٢٠ كيلو متراً ، وتبعد عن الشمس ١٠٧ مليون كيلو متر ، وتقطع دورتها حولها فى ٢٢٥ يوماً »(٣) .

وليست هناك أقمار تتبع هذا الكوكب أيضاً .

أما ثالث أفراد المجموعة الشمسية ، فهو أرضنا التى نعيش عليها ، فهى « تبعد عن الشمس ١٥٠ مليون كيلومتر ، ويبلغ قطرها ١٣٠٧٠ كيلو متراً ، وتتم دورة كاملة حول الشمس فى ٣٦٥ يوماً ، ودورة كاملة حول نفسها فى ٢٤ ساعة » (٤) .

---

(١) برتا موريس باركر : ما وراء المجموعة الشمسية (مرجع سابق) ، ص ٥ .
(٢) الدكتور محمد يوسف حسن (مرجع سابق) ، ص ١٣٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

ويتبع أرضنا قمر واحد ، يدور حولها ، «ويقطع مساره فى ½ ٢٧ يوم » ، وإن كان « يبلغ طول الشهر القمرى نحو ½ ٢٩ يوم » (١).

أما رابع أفراد المجموعة الشمسية : من حيث البعد عن الشمس ، فهو كوكب المريخ ، الذى يلى الأرض إلى الخارج ، والذى يبعد عن الشمس ٢٢٥ مليون كيلو متر ، ويبلغ قطره ٦٧٧٠ كيلو متراً ، ويتم حول الشمس دورة كاملة فيما يقرب من سنتين (٢) من سنى الأرض ، وحول نفسه فى ٢٤ ساعة ونصف » (٣) ـ ويتبعه قمران .

« ويلى المريخ » « المشترى » ، « ويبلغ قطره ١٣٩ر٠٠٠ كيلو متراً » ، وهو « يتم دورة كاملة حول نفسه ،فى عشر ساعات فقط» . « أما طول سنته فيبلغ قدر طول سنة الأرض ١٢ مرة »)(٤) ـــ ويتبعه ١٢ قمراً .وهو سريع الدوران حول نفسه ، لخفة مادته .

أما سادس أفراد المجموعة الشمسية ، فهو « زحل » وهو « يبعد عن الشمس ١٥٠٠ مليون كيلو متر » (٥)، ويتم دورته حول الشمس فى٥ر٢٩ سنة ، ويتبعه تسعة أقمار .

وسابع أفراد المجموعة الشمسية ، هو أورانوس ، ويبعد عن الشمس « ٢٨٠٠ مليون كيلو متر » (٦) ، ويتم دورته حول الشمس فى ٨٤ سنة ، ويتبعه خمسة أقمار (٧) .

---

(١) الدكتور عبد الحميد سماحة ، والدكتور عدلى سلامة (مرجع سابق) ، ص ٤٥ .

(٢) حقيقتها بالضبط ٨٨ر١ سنة .

(٣) الدكتور محمد يوسف حسن (مرجع سابق) ، ص ٤٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٤٤ .
وحقيقة طول سنته بالنسبة للأرض ، هو ٩ر١١ سنة .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٧) الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الفضـــاء الكونى (مرجع سابق) ، ص ١٥ ــ من الجدول رقم (١) .

وثامن أفراد المجموعة الشمسية هو نبيتون ، ويبعد عن الشمس « ٤٥٠٠ مليون كيلو متر »(١) ، وهو يتم دورته حول الشمس فى ١٦٤٫٨ سنة ، ويتبعه قمران (٢) .

أما آخر أفراد هذه المجموعة الشمسية ، و « وأبعد الكواكب عن الشمس ، فهو بلوتو ، يبعد عنها ما يقرب من ٦٠٠٠ مليون كيلو متر ، مما يجعله يستغرق ٢٥٠ عاماً من أعوام الأرض ، ليقطع دورة واحدة كاملة حول الشمس »(٣) .

وتتحدد ظروف الحياة فى كل كوكب من هذه الكواكب — كما يبدو — حسب الظروف الخاصة به ، وخاصة قربه — وبعده — من النجم الأم — الشمس ، ومدى دورانه حولها ، وغير ذلك من الأمور .

ولعل مما يلفت النظر فى أمر كواكب هذه المجموعة ، هو اختلاف التوقيت فى كل منها ، عنه فى الآخر ، فبينما السنة فى كوكب عطارد ٨٨ يوماً من أيام الأرض ، نراها تصل إلى أكثر من ١٦٤ عاماً فى كوكب نبتون ، و ٢٥٠ سنة فى كوكب بلوتو .

وإذا كان الأمر كذلك ، فى داخل المجموعة الشمسية الواحدة ، التى تنتمى إليها أرضنا ، فكيف يكون الحال بالنسبة لمجموعات مجرتنا البعيدة ؟ وكيف يكون بالنسبة للمجرات الأخرى ؟

---

(١) الدكتور محمد يوسف حسن (المرجع الأسبق) ، ص ٤٥ .
(٢) الدكتور محمد جمال الدين الفندى (المرجع الأسبق) ، ص ١٥ — من الجدول رقم (١) .
(٣) الدكتور محمد يوسف حسن (المرجع الأسبق) ، ص ٤٥ .

إن ذلك يمكننا من أن نفهم « قضية تعدد الأزمنة ، فى ضوء النظرية النسبية والعلم الحديث . . فالقانون العلمى يقول لنا ، أن كل نظام حركى له تقويم زمنى خاص به ، فالشمس وكواكبها نظام حركى ، له زمنه الخاص به ، فإذا خرج رائد الفضاء من أقطار هذا النظام الحركى ،وذهب إلى مجموعة نجمية فى مجرة أخرى ، فإنه يدخل فى تقويم زمنى مختلف ، مستمد من نظامه الحركى الجديد . . . وهذا القانون يفسر لنا اختلاف التقويم الزمنى بين البشر والملائكة ، وبين الملائكة الأرضية والملائكة المقربين »(١) .

وربما استطعنا فى ضوء هذه الحقائق العلمية الحديثة ، فهم قول الله سبحانه وتعالى ، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً :

— « ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » (٢) .

يضاف إلى هذه الحقيقة العلمية بطبيعة الحال ، قدرة الله سبحانه على السيطرة على الزمن ، فهو سبحانه وتعالى « يستطيع أن يقبض المائة سنة عن مخلوقاته ، فتصير يوماً ، أو يمدها فتكون مائة سنة ، دون أن تبرح مكانها ، ودون أن تغير نظامها الحركى — وتلك هى المعجزة التى أجراها على نبى التوراة عزرا ، الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه » . « وما حدث أن الله قبض المائة سنة عن طعام عزرا ، فاحتفظ بصلاحيته ولم يتلف ولم (يتسنه) ، وكأنما لم يمر بالنسبة له زمن ، بينما مد الزمن للحمار ، فهلك وتحلل ، وأصبح رمة ، ثم أعاد الله تركيبه ، وبعثه حياً أمام عزرا .

---

(١) مصطفى محمود : من أسرار القرآن — العدد (١١٥) من (كتاب اليوم) — مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة — سبتمبر ١٩٧٦ ، ص ٢٥ .

(٢) قرآن كريم : الحج — ٢٢ : ٤٧ .

وهى آيات تكشف عن سلطان الله القابض الباسط للزمان ، دون تقيد بنظام حركى أو مكان .

وهو نفس ما حدث بالنسبة لأهل الكهف ، الذين قبض الله عنهم الزمن ، فمرت بهم ثلاثمائه سنة ، وهم نيام ، لا يطرأ عليهم طارئ ، « لأنهم خرجوا من القبض الزمنى إلى البسط الزمنى ، فاختلفت أمامهم المعايير ، واشتبه عليهم الأمر » (١) .

خلق الأرض :

رأينا فى الفصل الأول(٢) ، أن مادة الكون ، وهى غاز الأيدروجين ، قد خلقت من عدم مطلق ، وأن النظام الشمسى عبارة عن كتلة سديمية تهشمت ، فتناثرت شموساً كبيرة ، منها شمسنا هذه ، وحول هذه الشمس تكونت مجموعة الكواكب ، ومنها كوكبنا هذا (الأرض) .

وقد اختلفت تقديرات عمر الأرض ، فقد « قدر اللورد كلفين ، عالم الفيزياء المشهور ، فى القرن الماضى ، عمر الأرض ، بنحو ٤٠ مليون سنة » . « ثم جاء العالم (جولى) » ، و « توصل إلى تقدير عمر الأرض بنحو ٨٠ — ٩٠ مليون سنة » .

« ثم حاول علماء الجيولوجيا (طبقات الأرض) تقدير عمر الأرض » . « وقد اختلفت تقديرات هؤلاء العلماء ، على أساس هذا الحساب أيضاً ، اختلافاً بيناً ، وإن كانت تتراوح بوجه عام ، بين ٢٥ — ١٠٠ مليون سنة » (٣) .

---

(١) مصطفى محمود : من أسرار القرآن (مرجع سابق) ، ص ٢٥ — ٢٧ .

(٢) ارجع الى ص ٢٢ ، ٢٣ من الكتاب .

(٣) الدكتور أنور عبد العليم (مرجع سابق) ، ص ٣ — ٥ .

« ولعل التقدير الجيولوجى ، الذى يمكن الاعتماد عليه لعمر الأرض ، هو ٢٥٠ مليون سنة ،وهناك تقديرات فلكية لعمر الأرض ، أقربها إلى التقدير الجيولوجى ٥٦٠ مليون سنة »(١) .

و « باستخدام طرق الإشعاع الذرى والنظائر المشعة » : « قدروا عمر هذه الصخور بنحو ٢٠٠٠ مليون سنة » .

و « المعلومات التى لدى العلماء فى الوقت الحاضر ، تجعلهم يعتقدون بأن القشرة الأرضية نفسها ، يبلغ عمرها نحو ٥٠٠٠ مليون سنة ، أو أكثر من ذلك بقليل »(٢) .

وهكذا تختلف تقديرات عمر الأرض ، منذ انفصالها عن الشمس ، فى نظر العلماء المتخصصين ، مستخدمين أحدث الأجهزة والقياسات العلمية ، وأكثرها دقة — بين ٢٥ مليون سنة ، وبليون سنة(٣) ، وهو فرق كبير ، بأى مقياس نظر به إلى هذا الفرق ، حتى أن هذا الفرق يعتبر عدة أضعاف تقدير عمرها ، فى نظر بعض العلماء .

ومثلما يختلف العلماء فى تقدير عمر الأرض ، يختلفون فى تقدير عمر الإنسان عليها .

ويتفاوت هذا التقـــدير ، بين « نحو ألف ، أو ألف وخمسائة مليون سنة » (٤) ، وبين نحو « ثلاثة آلاف مليون عام »(٥) ، حيث « استقرت

---

(١) الدكتور عبد الحميد سماحة والدكتور عدلى سلامة (مرجـع سابق) ، ص ١٠ .

(٢) الدكتور أنور عبد العليم (المرجع الأسبق) ، ص ٧ — ٩ .

(٣) عبد الرزاق نوفل : السماء وأهل السماء (مرجع سابق) ، ص ١٢٢ .

(٤) الدكتور أنور عبد العليم (المرجع الأسبق) ، ص ٢٣ .

(٥) الدكتور محمد يوسف حسن (مرجع سابق) ، ص ٦ — من المقـدمة .

دورة الكربون ، ونمت النباتات . . . وتطورت الحيوانات »(١) .

وهو فرق يبدو أقل من الفرق فى تقدير عمر الأرض ذاتها — ولكنه فرق كبير على أية حال .

ويرى العلماء ، أن الميكروبات « هى أول الكائنات الحية ، التى ظهرت على الأرض ، منذ مئات الملايين من السنين ، كما تدل الدراسات الحفرية على ذلك .

لقد كانت الأرض فى بدايتها ، لا تستقر أمورها على حال ، وكانت تنتابها ثورات وبراكين وزلازل . . » ، « وكان الميكروب هو الكائن الوحيد ،الذى استطاع أن يشق طريقه وسط هذه الظروف القاسية ، وقد ساعدته على هذا ، طبيعة تكوينه ، وقوة تحمله ، وقدرته على تحويل المواد غير العضوية ، إلى أخرى عضوية .

وهكذا ، كان للميكروبات الفضل الأول فى استصلاح الأرض وتعميرها ، وكان لأنزيماتها الفضل الأكبر ،فى تحويل عناصر الأرض .من صورة غير عضوية ،إلى أخرى عضوية ، تجرى بها الحياة »(٢).

ويرى داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) ، وتتبعه مدرسة علمية كبيرة ، من المتأثرين بنظريته النشوئية ، أن الحياة « ظهرت أول ما ظهرت ، فى تلك الصورة الهلامية ،التى نسميها (الجبلة) ، أو (البروتوبلازم) ، وهى الذخيرة

---

(١) عبد الرزاق نوفل : السماء وأهل السماء (مرجع سابق) ، ص ١٢٢ .

(٢) الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة — رقم (٦٢) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول يونية ١٩٦٢ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

أو الأصل، الذى تعود إليه كل صور الحياة، من نبات وحيوان. فأبسط صورة الحياة» هى « شذرة صغيرة من (البروتوبلازم) (الجبلة) ، تتضمن جسماً مستديراً، هو (النواة). وكلاهما من الصغر، بحيث لا تراه العين، إلا مستعينة بالمجهر (الميكروسكوب) .

وهذه الشذرة المكونة من جبلة ونواة ، هى ما يسميه الأحيائيون (الخلية) . وكل الأحياء على إطلاق القول ، إما أن تتألف من خلية واحدة ، أو من خلايا متعددة . والإنسان نفسه لا يتعدى أن يكون توليفة من عدد لا يحصى من الخلايا المختلفة (١) .

وقد أخذت هذه الحياة — فى نظر داروين والمتأثرين به وبنظريته - تتطور ، من هذه (الجبلة الحية الأولى) ، إلى ذوات الخلايا ، التى أخذت تتعقد ، حتى وصلت إلى (الثدييات) ، وتطورت الثدييات ذاتها ، حتى وصلت إلى (القردة) « الشبيهة بالإنسان . . وهى الحلقة التى تربط بين القردة والإنسان منذ نحو مليون سنة فقط — وتطورت هذه الأنواع لمئات الألوف من السنين ، إلى أن ظهر الإنسان ، كما هو معروف اليوم » (٢) .

ولسنا فى مقام الرد على داروين والداروينيين الآن ، وإنما نرجئ

---

(١) تشارلز داروين (مرجع سابق) ، ص ٣٩ — من مقدمة المترجم .

(٢) الدكتور أنور عبد العليم (مرجع سابق) ، ص ٣٤ .

ويمكن الرجوع الى سلسلة التطور الداروينية هذه فى المرجع السابق، ص ٣٠ (شكل رقم ١) بعنوان (توقيت الأحقاب والعصور) . وكذلك فى مرجعها الأصلى :

— تشارلز داروين (المرجع الأسبق) ، ص ٤١ — من مقدمة المترجم (الرسم المعنون : شجرة الأحياء) .

وبين المرجعين اختلاف فى التفصيلات بطبيعة الحال — الا أنهما متفقان فى الأصول ، وفى كثير من التفريعات .

ذلك إلى أن يأتى الوقت المناسب له ، فى هذا الفصل ، وفى فصول الكتاب التالية .

وباختصار ، فإن الأرض — ككوكب — انفصلت عن أمها الشمس فى نظر العلماء — وظلت تدور حولها ، كما تدور غيرها من الكواكب ، ثم انفصل القمر عنها ، وظل يدور حولها .

وبعد آلاف — أو ملايين - السنين ، بردت الأرض ، ووجدت الحياة عليها ، بدءاً بالحيوان وحيد الخلية (الجبلة) ، وتطوراً بهذا الحيوان . . . حتى وصل إلى الإنسان .

ويختلف الإسلام عن العلم الحديث فى قليل من هذه المسائل ، ويتفق معه فى كثير منها . ومرجع الاختلاف — فى نظرى — هو أن العلم الحديث لا يؤمن (بخلق) الله لهذا الكون أساساً ، وعلى أساس التطور التلقائى للحياة ، بنى نظرياته ، بينما الإسلام يرى أن الله هو الذى خلق الأرض ، كما خلق الكون قبلها ، وكما خلق صور الحياة المختلفة فى هذا الكون . . . قبلها وبعدها .

أما مرجع الاتفاق ، فهو أن العلم قد وصل إلى كثير من الحقائق المتصلة بالكون والحياة ولا شك ، وهو فى هذه الحقائق لابد أن يتفق مع الإسلام الذى ذكر الحقيقة وحده — وهو لم يختلف مع الإسلام إلا فيما لم يتوصل إليه من حقائق بعد .

وقد رأينا فى الفصل الأول(١) أن الإسلام يختلف مع العلم الحديث فى بعض ما يذهب إليه عن خلق الكون ، وخلق الأرض والسماء .

---

(١) ارجع الى ص ٢٦ — ٢٩ من الكتاب .

ومرة ثانية ، يختلف القرآن الكريم مع العلم الحديث فى اندفاعه وراء نظرية (النشوء والارتقاء) التى ذهب إليها داروين ، رغم ما أحدثته النظرية من دوى ، وما كان لها من صدى ، لا فى علوم الحياة وحدها ، بل وفى علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد أيضاً .

ذلك أن النظرية ليست خطأ مطلقاً ، وإنما فيها جوانب مشرقة مضيئة ، ووجهات نظر صحيحة ، وفيها كذلك . . نقاط ضعف .

وكبرى نقاط ضعفها أنها كنظريات الماديين المعاصرين – تقوم على إنكار (الخلق) ، وبالتالى على إنكار وجود (الله) .

ومن ثم يتهدم بنيانها، بتهدم الأساس الصحيح الذى يجب أن تقوم عليه .

ومع ذلك ، فمن بين قطع البنيان المتهدمة . . قطع تصلح لبنيان جديد .

ويكفى هدماً للنظرية، أنها تقوم على (تطور) الحياة ، من الحيوان وحيد الخلية ، إلى الإنسان (قمة التطور) ، بينما لا يزال الحيوان وحيد الخلية موجوداً منذ وجد ، لم ينقرض ، وبينما الإنسان منذ آدم وحتى اليوم . . . لم يتطور أيضاً ، وإنما تطورت الحياة من حوله، لما أدخله على هذه الحياة من تغييرات ، بسبب قدرته (العقلية) ، وتفكيره (العلمى) ، ومنجزاته (التكنولوجية) .

وما بين الحيوان وحيد الخلية والإنسان ، من مخلوقات . . . لا زال موجوداً أيضاً .

وقد حسم القرآن الكريم هذه القضية ، حين قال: إن الله سبحانه خلق السماء والأرض ، وخلق فى الأرض كل ألوان الحياة ، وأعدها لسكنى الإنسان ، فسكنها :

— « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا . إلا إبليس ، لم يكن من الساجدين . . . » (١) .

هذا عن خلق الإنسان . أما عن هبوطه إلى الأرض ، بعد استدراج الشيطان له :

— « قال : اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » (٢) .

وترد قصة خلق الإنسان أيضاً على لسان الشيطان ، موجهاً كلامه لله ، مبرراً عدم سجوده له ، كما أمره ربه :

— « وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ » (٣) .

ويبدو أن داروين نفسه قد أحس بما أحسسنا به نحن ، من تساؤل حول وجود الحيوان وحيد الخلية ، جنباً إلى جنب مع بقية الحيوانات ، ومع الإنسان ، فسأل نفسه هذا السؤال ، ولم يستطع أن يقدم له جواباً شافياً ، (٤) ثم عاد فطور نظريته بعد حوالى مائة صفحة من سؤاله هذا ، وقال : إن التطور لا يعنى بالضرورة تطوراً من نوع إلى آخر ، بل قد يكون تطوراً فى داخل النوع الواحد ، يتمكن به من التكيف مع بيئته (٥) .

وإذا كان داروين نفسه ، قد تردد وتلعثم فى صلب نظريته ، إلا أنه خلف من ورائه مجموعة من العلماء ، داروينيين أكثر من داروين نفسه . ويبدو أن فى العالم العربى والإسلامى من هؤلاء الداروينيين .. الكثيرين .

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١١ .
(٢) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٢٤ ، ٢٥ .
(٣) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ٦١ .
(٤) تشارلز داروين (مرجع سابق) ، ص ٢٧٤ — ٢٨١ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٧٣ — ٣٧٥ .

وعلى كل حال، فهذا رأى داروين والداروينيين، وهذا رأى الإسلام.

وأعتقد أن رأى الإسلام هو الصواب، لأنه رأى من خلق، وهو بخلقه أعلم . . أما العلم، فهو فى هذا الموضوع بالذات . . لا يزال فى أول الطريق، باعتراف العلماء أنفسهم، وبدليل التضارب الذى رأيناه — من قبل — حول كل حقيقة من الحقائق التى ساقوها وقدموها، وقد أشرت إلى كل تضارب فى حينه .

الحيـاة على الأرض :

تجمع الآيات القرآنية، التى وردت فى مواطن مختلفة . . على أن الله سبحانه قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استوى على العرش، يدبر أمور هذا الكون الواسع :

— « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار، يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر؟ تبارك الله رب العالمين »(١).

— « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استوى على العرش، يدبر الأمر . . » (٢).

— « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وكان عرشه على الماء ليبلوكم : أيكم أحسن عملا ؟ » (٣).

— « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام، ثم استوى على العرش . . » (٤) .

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٥٤ .
(٢) قرآن كريم : يونس — ١٠ : ٣ .
(٢) قرآن كريم : هود — ١١ : ٧ .
(٤) قرآن كريم : الفرقان — ٢٥ : ٥٩ .

وأكثر من ذلك ، أن القرآن يقرر أن الله سبحانه وتعالى قد حدد — يوم خلق السموات والأرض — دورة الأرض حول الشمس ، وطول هذه الدورة ومداها :

— « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض » (١) .

ولا نستطيع أن نجزم ما إذا كانت الأيام الستة ، المذكورة فى القرآن الكريم ، ستة أيام بتوقيت الأرض ، أم ستة أيام بتوقيت سدرة المنتهى ، حيث العرش ، وقد أشار الله إليها صراحة فى قوله سبحانه :

— « ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » (٢) .

ولو كانت الأيام الستة بتوقيت سدرة المنتهى ، فإنها تكون بحساباتنا الأرضية ستة آلاف سنة ، تكون فيها الأرض قد بردت ، وبدأت الحيوانات وحيدة الخلية بأمر ربها تحول المادة غير العضوية فيها إلى مادة عضوية ، وبذلك تمهد للحياة النباتية والحياة الحيوانية عليها . . قبل أن ينزل آدم إلى الأرض . . ليجد كل شىء معداً لحياته الأرضية .

ولو كانت الأيام الستة بتوقيتنا الأرضى ، فإن قدرة الله على قبض الزمن وبسطه — كما سبق — كفيلة بعمل ذلك كله ، إعداداً للأرض لتستقبل آدم عند هبوطه :

---

(١) قرآن كريم : التوبة — ٩ : ٣٦ .

(٢) قرآن كريم : الحج — ٢٢ : ٤٧ .

ـــ « هو الذى خلق لـكم ما فى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سموات ، وهو بـكل شىء عليم. وإذ قال ربك للملائـكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة . . »(١) .

والحياة على الأرض لا تستقيم — كما سبق(٢) — بدون انتمائها إلى المجموعة الشمسية ، وبدون انتماء المجموعة الشمسية كلها إلى المجرة ، وبدون أنتماء مجرتنا إلى بقية مجرات السماء ، واتصالها بها على نحو ما ، يحدده الله سبحانه .

وأكثر أجزاء السماء تأثيراً فى الحيـاة على الأرض ، هى الشمس بطبيعة الحال .

فبدوران الأرض حول نفسها ، يتحدد اليوم بأربع وعشرين ساعة ، وبدورانها حول الشمس ، يتحدد العام بـ ٣٦٥ يوماً .

وليس هـكذا الوضع بالنسبة للـكواكب الثمانية الأخرى ، أخوات الأرض — كما سبق(٣) .

وترسل الشمس أشعتها إلى الأرض ، فترسل معها إليها كل أسباب الحيـاة .

إن أشعة الشمس تسقط على الأرض ، أو على الماء ، لتبعث فيهما الحياة، على هيئة: دورات . . .دورات مائية، ودورات هوائية ، ودورات حرارية، وكلها مترابطة متسقة، ليكون هناك حرارة وبرودة ، وبخار وأمطار، و...

« والشمس تحرق فى كل ثانية واحدة أربعة ملايين طن من مادتها » ، فهى « تدخل فى تفاعل نووى جبار فى كل ثانية ، فتنشأ فى جوفها حرارة ، تصل

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) ارجع الى ص ١٩ ، ٢٠ من الكتاب .
(٣) ارجع الى ص ٤٠ — ٤٥ من الكتاب .

إلى أربعين مليون درجة مئوية » .

« والأرض تستقبل جزءاً من هذا الموقد السماوى ، على هيئة طاقة حرارية وضوئية » . « ولكنه جزء ضئيل هذا الذى يصلنا من الشمس » ، « فالأرض كلها لا تستقبل إلا جزءاً واحداً من ألفى مليون جزء من أشعة الشمس أو طاقاتها »(١) .

ويؤدى هذا الموقد السماوى الضخم ، إلى تزويد الأرض بكل وسائل الطاقة ، سواء فى ذلك الطاقة الشمسية ، والطاقة المائية ، والطاقة الكهربائية.

ذلك أن أشعة الشمس تنعكس على البحار الملحة ، فيتبخر ماؤها ، ثم تتسبب تلك الأشعة فى إحداث حرارة فى بعض الأنحاء ، وبرودة فى بعضها الآخر ، تؤدى إلى خلق تيارات هوائية ، تدفع بالسحب المتجمعة هنا وهناك . . . كما تؤدى (هذه التيارات الهوائية) إلى « الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب »(٢) ، فينهمر المطر . . . مياهاً عذبة ، لا حياة على وجه الأرض ، لإنسان أو حيوان أو نبات ، بدونها .

وبدون هذه المياه العذبة ، تستحيل الأرض جلود صخر ، لا حياة فيه ، ولا إمكانية للحياة عليه .

وتتجمع هذه المياه العذبة فى أنهار ، يحصل الإنسان منها على الطاقة المائية ، كما يمكنه أن يحصل منها على الطاقة الكهربائية — تماماً مثلما يحصل منها على طعامه وشرابه ، ومثلما يحصل منها الحيوان والنبات على أسباب حياته.

---

(١) الدكتور عبد المحسن صالح : دورات الحياة (مرجع سابق) ، ص ٦٦ — ٦٨ .

(٢) عبد الوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس — رقم (٥٥) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — ١٥ فبراير ١٩٦٢ ، ص ٣٨ .

والباحث عن كل مصادر الطاقة فى أرضنا ، لا بد أن يجد الشمس وراءها ، بصورة مباشرة ، أو بصورة غير مباشرة .

والشمس هى السبب المباشر للأوكسجين ، الذى لا غنى للإنسان والحيوان عنه فى حياته ، «فالإنسان العادى يأكل فى اليوم كيلو جراماً وربع كيلو جرام من الطعام ، ويشرب حوالى كيلو جرامين من الماء .. ولكنه فى الوقت نفسه يستنشق حوالى تسعة كيلو جرامات من الهواء . وقد يبقى الإنسان يومين بدون شراب ، وثلاثة أيام بدون طعام ، ولكنه لا يستطيع أن يبقى حياً دقائق معدودات ، دون أن يستنشق نفساً من الهواء .. وقد يرفض طعاماً أو شراباً لا يعجبه ، ولكنه لا بد أن يستنشق الهواء ، حتى ولو كان لا يعجبه . . . » ، «وحتى ولو كان يحتوى على غازات سامة .. فالجسم يفضل أن يموت مسموماً ، على أن تموت خلاياه مختنقة فى غياب أوكسجين الهواء . . » .

« وعندما نستنشق الهواء . . . » ، يتخلص « الجسم من نفاياته على هيئة ثانى أوكسيد الكربون وبعض بخار الماء ، ويستبدل بها من الهواء ، غاز الأوكسجين » .

ويوزع الأوكسجين على الدم ، عن طريق « كرات دم حمراء ، تبلغ حوالى ٢٥ تريليون كرة دموية (٢٥ على يمينها ١٨ صفراً) »[١] .

وفى الوقت الذى يتخلص فيه الإنسان والحيوان من ثانى أوكسيد الكربون ، ويحصل على الأوكسجين ، لتستمر حياته .. نجد النبات يحصل على ثانى أوكسيد الكربون ، ويطرد الأوكسجين ، فثانى أوكسيد الكربون ضرورى لحياة النبات ، ضرورة الأوكسجين لحياة الإنسان والحيوان .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٩ — ٨١ .

وهذا التبادل بين الإنسان والحيوان من جانب، وبينه وبين النبات من جانب آخر .. لا يتم عفوياً أو تلقائياً ، وإنما لا بد له من عامل مساعد . والعامل المساعد هنا هو الشمس ، فبالشمس تتم عملية التمثيل الكلوروفيللى ، التى يحصل بها النبات على حاجته من ثانى أوكسيد الكربون ، ويتخلص من الأوكسجين .

وبدون الشمس ، لم تكن عملية التمثيل فى النبات لتتم ، ولم تكن حياة الإنسان والحيوان — بالتالى — لتستمر .

ويستطيع الإنسان أن يستمر فى دراسة مظاهر الحياة المختلفة على الأرض، وأسبابها ... ليجد — فى النهاية — أن الشمس تقف — بصورة مباشرة أو غير مباشرة — وراء أسباب مظاهر الحياة على الأرض ، مثلما تقف وراء أسباب الحياة ومظاهرها ، فى كل كوكب من كواكب المجموعة الشمسية .

وحدة الحياة على الأرض :

رأينا فى الفصل الأول(١) كيف تتم (وحدة الكون) بصورة رائعة ، متمثلة فى الوحدة بين أصغر ذرات هذا الكون ، وهى النواة ، وبين النظام الكونى كله ، فالكل يدور ويدور ، وفق نظام محكم ، لا يقدر على خلقه ورعايته سوى الله سبحانه .

وهذه (الوحدة)، التى خلقها الله سبحانه فى الكون الواسع ... خلقها فى الأرض أيضاً ... من حولنا .

وتبدو هذه (الوحدة) أروع ما تكون ، فى ذلك (التكامل) الذى رأيناه ، بين حياة الإنسان والحيوان والنبات ... مثلا .

---

(١) ارجع الى ص ٢٩ — ٣٣ من الكتاب .

وتلعب الشمس — أم الأرض وأخواتها — دوراً أساسياً فى تحقيق هذا (التكامل) ، وخلق تلك (الوحدة) ، كما سبق .

ولا تلعب الشمس هذا الدور من تلقاء نفسها ، كما يقول بذلك الماديون ، وإنما تلعبه مسيرة بأمر ربها ، وفق القانون الإلهى المحكم .

وهى لا تلعبه بحكم حجمها الكبير ، بالنسبة للأرض على الأقل ، ولا بحكم طاقتها الهائلة ، التى رأينا جانباً منها فى استهلالنا لهذا الفصل[١] ، وجانبا آخر عند الحديث عن (الحياة على الأرض) منذ قليل[٢] ، وإنما هى تلعبه بحكم الدور الذى أعده لها الله خالقها سبحانه، يوم خلقها ، ليكون لها فى هذا الكون دور تلعبه ، متعاونة فى ذلك مع مخلوقات الله الأخرى فيه :

— « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون »[٣].

— « سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »[٤].

ولكن الدور ليس دور الشمس وحدها فى هذا الكون . . ولا هو

---

(١) ارجع الى ص ٤٠ من الكتاب .
(٢) ارجع الى ص ٥٥ وما بعدها من الكتاب .
(٣) قرآن كريم : الرعد — ١٣ : ٢ .
(٤) قرآن كريم : يس — ٣٦ : ٣٦ — ٤٠ .

دورها وحدها فى حياة الأرض، وإنما اقتضت حكمة الله أن يلعب الميكروب، والحيونات وحيدة الخلية ،دوراً فى حياة الأرض ،لا يقل عن الدور الذى تلعبه الشمس .

وقد رأينا — من قبل — الدور الذى لعبه الميكروب فى التمهيد لحياة الإنسان على الأرض (١) . وسوف نرى الآن الدور الذى يلعبه فى استمرار هذه الحياة .

و « الميكروب كائن حى مستقل بنفسه ، إلا أن أدق ميزان حساس، لا يستطيع أن يزن ميكروباً ، ذلك أن وزن الميكروب قد يصل إلى ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٢ر٠ من الجرام ، أى أن جراماً واحداً يحتوى على عدد من أفراد البكتريا ، قد يصل إلى حوالى ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٥ فرداً .

وإذا أردنا أن نتصور ضآلة الميكروب ، تصورنا أن مسافة صغيرة ، يقدر طولها بملليمتر واحد ، يمكن أن يتراص فيها طابور طويل من أفراد البكتريا، يصل عدده إلى الألف ! . كما « وجد أن البوصة المكعبة فيها من ميكروبات التيفود ، ما يقدر عدده بحوالى ٩ مليون مليون ميكروب! » (٢).

وهذه المخلوقات الصغيرة ، المتناهية فى الصغر ، البسيطة ، المتناهية فى البساطة ، أودع فيها الله خالقها قدرات جبارة ، لم يودعها فى الإنسان ذاته . إنها « واسعة الانتشار فى الطبيعة » ، وهى « أوسع الكائنات الحية انتشاراً، فقد وجدت فى الجو على ارتفاع يصل إلى أربعة أميال فوق سطح البحر ، كما وجـــدت فى الطين على عمق ثلاثة أميال تحت سطح البحر » ، و « هى

---

(١) ارجع الى ص ٤٨ من الكتاب .
(٢) الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحيـاة (مرجع سابق) ، ص ٣٤ .

المسئولة عن كثير من التغيرات الفيزيائية والكيموية ذات الأهمية ،فى حياة النباتات ، والحيوانات ، والإنسان »[١] .

وهى « تنتشر فى كل أرجاء الكون ، ونأخذ منها جرعتنا اليومية ، مع الهواء الذى نستنشقه ، والطعام الذى نأكله ، والشراب الذى نتناوله»[٢] .

وهى تتحمل «درجات حرارة عالية »، و« تصمد صموداً غريباً ضد درجات الحرارة المنخفضة » . « وقد أجريت تجارب أخرى على الجراثيم ، فوجد أنها تصمد لدرجة حرارة تصل إلى ٢٥٠ درجة مئوية تحت الصفر ، وقد صمد بعضها ثلاث سنوات طوال ، عند درجة ١٩٠ تحت الصفر ، وبعد أن أعيدت لها الظروف المناسبة ، نمت من جديد » .

« وفى إحدى التجارب ،التى أجريت حديثاً، على ميكروبات معزولة من أراضى صحراوية ، ظهر أنها كانت تعيش تحت ظروف ،قريبة الشبه بالظروف الجوية على كوكب المريخ ، ولهذا يتوقع العلماء أن جو الكواكب الأخرى موبوء بأمثال هذه الميكروبات ، التى تتحمل أقسى ظروف الحياة » [٣] .

ذلك أن البكتريا، رغم أنها « خلية وحيدة ، تتخذ أشكالا عدة» [٤] ، ورغم أنها — كما سبق — « صغيرة بدرجة تفوق التصور »[٥] ، فإن « التركيب الكيموى ابروتوبلازم خلايا البكتريا معقد ، مثل بروتوبلازم الخلايا الحية الأخرى . وزيادة على ذلك ، فإن الكيمياء الحيوية لعمليات

---

(١) ويليام بوين سارلز (مرجع سابق) ، ص ١ — ٣ .
(٢) الدكتور عبدالمحسن صالح : الميكروبات والحياة (المرجع الأسبق)، ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠ ، ٣١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٧ .
(٥) ويليام بوين سارلز (مرجع سابق) ، ص ١٠ .

حياة البكتريا الحقيقية ، تماثل فى كثير ، حالة غيرها من الخلايا الحية ، بل قد تكون أكثر تعقيداً » (١) .

وتتكاثر جميع أنواع البكتريا بالانقسام ، و « يستطيع الميكروب أن يعطى جيلا بعد نصف ساعة ، أو قد تصل مدة الجيل فى بعض الأنواع إلى ثلث أو ربع ساعة !

والجيل الجديد لا ينتج عن عملية تزاوج ، بل إن الكائن الواحد ينقسم ، ويتحول إلى فردين جديدين ، يمثلان الجيل الأول ، وكل فرد من هذا الجيل ينقسم بعد نصف ساعة أخرى ، ليعطى جيلا ثانياً ، يتكون من أربعة أفراد » .

« ولو سارت الأمور مع ميكروب الكوليرا سيرها الطبيعى ، فإن فرداً واحداً ، يستطيع أن ينتج ذرية ، تغطى سطح الكرة الأرضية ، بما فى ذلك البحار واليابسة ، بطبقة متصلة غير منفصلة ، فى غضون ثلاثين ساعة (٢) » .

ومعنى ذلك أن الميكروبات قادرة على تدمير الحياة ، فى أقل من يوم كامل ، لولا لطف الله بعباده ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

وقد كانت الأمراض الفتاكة — وليدة الميكروبات — من وسائل إبادة بعض العصاة فى مجتمعات قديمة . لقد سلط الله على هؤلاء العصاة الميكروب ، مثلما سلط على بنى إسرائيل الطوفان والجراد والقمل والضفادع ، ومثلما سلط على أصحاب الفيل الطير ، ترميهم بالحجارة :

« وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٢) الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة (مرجع سابق) ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

«فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين»(١).

— «ألم تر: كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول» (٢).

إن الله سبحانه يسلط الميكروبات بعضها عن بعض، وبذلك يحفظ بينها (توازناً) ضرورياً لاستمرار الحياة... ويوم يختل هذا (التوازن)، تكون الكارثة.

وتعود هذه القدرة الهائلة للميكروبات، رغم بساطتها ودقتها، إلى «وجود مفاتيح خاصة من مركبات كيميائية معقدة، يطلق عليها اسم الأنزيمات أو الخمائر، وأصبح الميكروب — على دقته — معملاً قائماً بذاته، تجرى فى داخله أو خارجه أعوص العمليات الكيميائية وأعقدها، فى دقائق معدودات، فيحيل الغذاء إلى سموم قاتلات، ويفتك بالأجسام الحية والميتة، فيخلق منها حطاماً، ويستطيع الميكروب أن يعيش بمساعدة مفاتيحه أو أنزيماته، على كل مالا يخطر لإنسان على بال.

فهو يستطيع أن يعيش على الكبريت ومركباته، وعلى غاز النيتروجين الجوى ومركباته، وعلى الإيدروجين: فيحوله إلى ماء، بل وعلى مركبات البترول فى أعماق الأرض، ويستطيع أن يستغل مركبات الحديد، فيحولها من صورة إلى أخرى.. وهكذا»(٣).

---

(١) قرآن كريم: الأعراف — ٧: ١٣٢، ١٣٣.
(٢) قرآن كريم: الفيل — ١٠٥: ١ — ٥.
(٣) الدكتور عبد المحسن صالح: الميكروبات والحياة (مرجع سابق)، ص ٢٦، ٢٧.

والجسم البشرى ، كأى جسم آخر حى على هذه الأرض ، ليس إلا (مستعمرة) كبرى للجراثيم ، وعلى أرض هذه المستعمرة تدور معارك رهيبة ، كل ثانية من ثوانى الليل والنهار ، ففى « أمعائنا ، تعيش جيوش من الميكروبات ، من أنواع وأجناس شتى ، وكان اختلاف أنواعها رحمة بنا ، فلو أن نوعاً واحداً من الميكروبات استقل بأمعائنا ، لكان فى هذا هلاكنا .

أما وجودها على هيئة أنواع كثيرة ، فيتسبب عنه صراع ، لكى يفوز كل نوع بلقمة العيش ، والصراع يحدث توازناً بينها ، فلا تترك لها الفرصة لكى تغزو أجسامنا » (١) .

وهذا الذى يحدث فى الأمعاء ، يحدث فى كل مظهر من مظاهر الطبيعة حولنا .

وعندما يختل هذا (التوازن) . . يكون الهلاك . . ولكنه رهن بارادة الله سبحانه .

ووظيفة الميكروبات الأساسية فى استمرار الحياة لنا ومن حولنا ، أنها تقوم بعملية (تحليل) المخلفات فى هذه الحياة ، بدلا من تراكمها ، فقد خلقت « لتتصرف فى حوالى ألفى بليون طن من صور الحياة ، التى تتساقط إلى الأرض ، على هيئة أجداث ، فتهدم فيها بمعولها غير المنظور ، وتفكك الروابط الكيميائية ، بين المركبات المعقدة » (٢) ، وبذلك تتحلل تلك المخلفات ، وبدلا من أن تصير عبئاً على الأحياء ، تكون سبباً من أسباب حياتهم .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

إنها تحلل هذه المخلفات ، وتعيد تركيبها من جديد ، بحيث تفيد الإنسان في حياته كما تفيد غير الإنسان من الكائنات الحية .

فعلى أشلاء من سقط من الأحياء ، وبعد إعادة تشكيل عناصر هذه الأشلاء من جديد ، يجد النبات غذاءه ، فينمو ، وما أن يتم نموه ، حتى يأكله الإنسان والحيوان ، ليعيش عليه ، والنبات بدوره ينمو ويكبر على أشلاء الإنسان والحيوان . . بعد تحليل تلك الأشلاء .

وتدور عجلة الحياة دورتها . . ولولا الميكروبات ، وما تقوم به من دور في إعادة تشكيل الأشلاء ، ليعيش عليها الأحياء .. لتوقفت الحياة .

وهكذا تشاء حكمة الله سبحانه ،أن تكون أسباب الحياة في الأرض كائنة في أدق مخلوق يعيش عليها، وهو الميكروب ، وفي أكبر مخلوق تتصل به ، وهو الشمس .

ولا يستطيع الإنسان أن يجزم : هل الشمس أكثر أهمية للحياة على الأرض ،أم الميكروبات ؟

ولكن الإنسان يستطيع أن يقول : إن لكل منهما دوراً في الحياة على الأرض، لا يقل عن دور الآخر،فبدونهمامعاً :تستحيل الحياة على الأرض .

وفي تكامل دوريهما في الحياة على الأرض ، تبدو وحدة هذه الحياة ،وتبدو — قبلها وبعدها — وحدة الله سبحانه ، وقدرته واقتداره .

الفصل الثالث

العلم . . والدين . . والكون

الخصومة بين العلم والدين :

ومن الأخطاء الشائعة ، القول بأن هناك خصومة تقليدية بين العلم والدين ، وأن هذه الخصومة التقليدية تترك لها انطباعاً على النظرة إلى الكون، والعلاقة به .

ويشيع هذا القول بشكل واسع فى الغرب ،وهم يقولونه ، وأعينهم على أوربا العصور الوسطى ، وما تمت فيها من خصومات بين رجال الدين ، ورجال العلم ، حتى أن العلم فى أوربا عندما تقدم — بعد الإصلاح — إنما تقدم على (أشلاء) الدين ورجاله .

ويعتبر القرن الرابع الميلادى ، هو القرن المسئول عما حدث فى أوربا فى العصور الوسطى ، والمسئول — بالتالى — عن هذه الفكرة الخاطئة ، فقبل هذا القرن ، كانت المسيحية قد فشلت فى أن تجد لها مكاناً بين بنى إسرائيل ، الذين أرسلت إليهم ، وكان عليها أن تشق طريقها - بصعوبة - فى خارج فلسطين، بعد أن تشكلت بأشكال عديدة ، تتمكن بها من الانتشار هنا وهناك (١) .

وفى هذا القرن (الرابع) ، تم « اعتراف الامبراطورية ، بالديانة المسيحية سنة ٣١٣ ميلادية، ونقل عاصمة الامبراطورية إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الله ، والانسان المعاصر ـ الكتاب الثانى من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

ميلادية ، وازدياد خطر الجرمان على كيان الامبراطورية الرومانية ، عقب موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ميلادية ، واتخاذ المسيحية ديناً للامبراطورية سنة ٣٩٢ ميلادية ، ثم تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى قسمين ، شرقي وغربي ، سنة ٣٩٥ ميلادية » (١) — حتى كان القـــرن السادس الميلادى ، فانتهت « الامبراطورية الرومانية الغربية ، وانهارت حضارتها ، وحلت محلها حضارة جديدة ، هى حضارة المجتمع فى القرون الوسطى فى أوربا » (٢) .

وابتداء من القرن السادس الميلادى ، كانت مودة قد « توثقت عراها ، بين الكنيسة والمتبربرين »(٣) الجرمان ، واتفق الطرفان على هدم كل أثر للحضارة الرومانية ، الوثنية ، مما أدى إلى « انكماش الحضارة الرومانية تدريجياً من إيطاليا واسبانيا وغاليا (فرنسا) وانجلترا ، وغيرها من البلاد التى خضعت للرومان أيام سطوتهم »(٤) .

وقد نمت هذه المودة بين الكنيسة والسلطة الحاكمة ، بحيث صارت « الكنيسة تعد فرعاً من الحكومة الزمنية ، أو الحكومة الزمنية تعد فرعاً من الكنيسة ، وصار الاختلاف فى العقيدة يعتبر خيانة »(٥) تؤدى بالإنسان إلى إباحة دمه ، بطبيعة الحال .

---

(١) دكتور محمود عبد الرزاق شفشق ، ومنير عطا الله سليمان : تاريخ التربية ، دراسة تاريخية ثقافية اجتماعية — دار النهضة العربية — ١٩٦٨ ، ص ١٢٦ .

(٢) فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان — مكتبة نهضة مصر ، ص ٨٤ .

(٣) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الاسلام (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٨ ، ص ٨٣ .

(٤) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الاسلامية ، وأثرها فى الحضارة الأوربية — الطبعـــة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣ ، ص ٣٧ .

(5) BENIANS, SYLVIA : From Renaissance to Revolution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen & Co. Ltd, London. 1923, p. 95.

ونما — مع هذه المودة — سلطان الكنيسة ورجالها ، « حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى ، وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوربا »(١)، وحتى صار هذا السلطان — ابتداء من القرن الحادى عشر — بحيث أقلق الأباطرة والملوك ، وصارت « الحرب بين البابوية والامبراطورية بعد ذلك سجالا » (٢) — حتى بدأت قوة الأباطرة والملوك تزداد ، « مع القرن الرابع عشر ، وتضعف — أمامها — قوة البابوات » (٣) .

وفى أثناء سطوة الكنيسة هذه ، سيطرت الكنيسة — وحدها — على التعليم ، وأقامت فلسفته «على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية »(٤)، وصار هدفها « هو : إماتة الشهوات ، وإهمال الجسم ، حتى تنتقى الروح ، وتنجو من عذاب جهنم » (٥) ، و « رفض آباء الكنيسة تعليم الألعاب الرياضية والموسيقى والبلاغة والفلسفة المدنية » ، لأنها لا « تتمشى مع العقائد المسيحية » (٦) ،وفرض رجال الدين المسيحى « حاجزاً بين عقل الإنسان ،

---

(١) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٣٩ .

(٢) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ١٩٠ .

(3) GUEST, GOERGE : The March of Civilisation; G. Bell and Sons, Ltd, 1951, p. 79.

(٤) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق) ، ص ٤٠ .

(٥) صالح عبد العزيز ، وعبد العزيز عبد المجيد : التربية وطرق التدريس — الجزء الأول — الطبعة الخامسة — دار المعارف بمصر — ١٩٥٦ ، ص ٣٤ .

(٦) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ ، ص ٣٥١ .

والعالم الخارجى المحيط به »(١) ، فلم يعد مسموحاً لهذا العقل أن يرى إلا ما يرونه هم له .

ومن تمرد على هذا العلم، ورأى غيره ، تعرض لأقسى أنواع التعذيب، حتى لقد « لقى بعض رؤساء الجامعات مصيرهم حرقاً،وهم أحياء »(٢) .

ولعلنا نعرف مالاقاه كوبرنيكس ، حين قال تلك الحقيقة التى صارت معروفة تماماً ، وقلنا بها فى الفصلين السابقين ، وهى أن (الشمس هى مركز النظام الشمسى) ـ ومالاقاه جاليليو بعده ، حين قال إن الأرض تدور حول الشمس(٣) .

وقصة محاكم التفتيش معروفة فى أوربا ، فقد أباحت دم كل من رأت الكنيسة إباحة دمه ، وكان نصيب العلماء والفلاسفة من هذه المحاكم ، هو النصيب الأكبر، «ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم، يبلغ عددهم ثلثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء ، كان منهم العالم الطبيعى المعروف برونو ، نقمت منه الكنيسة آراء ، من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت

---

(1)HUDSON, WILLIAM HENRY : The Story of the Renaissance; Goerge G. Harrap & Company Ltd, London, 1928, p. 6. Quoted : Lowers, History of Philosophy, ii, 95,96.

(٢) د. عبدالمنعم عبيد : « الجامعات وعلاقتها بالصناعة والمجتمع » — الكاتب ــ مجلة المثقفين العرب ــ السنة الحادية عشرة ــ العدد ١١٨ — يناير ١٩٧١ ، ص ١٥٩ .

(٣) لتقف على ما حدث لهذين العالمين ، ارجع الى :

—SAGAN, CARL, and LEONARD, JONATHAN NORTON, and the Editors of LIFE : Planets; LIFE Science Library, Time Life International (Nederland) N.V., 1967, pp. 13, 14.

ــ دكتور عبد الحميد أحمد أمين : الطاقة الذرية ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ــ رقم (٦) من (الألف كتاب) ــ مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٦ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

عليه بالقتل ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعنى أن يحرق حياً ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الطبيعى غليليو (Galilio) بالقتل ، لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس » (١) .

وما أن ضعف سلطان رجال الدين ، بضعف البابوات أمام الأباطرة ، حتى بدأ سلطان رجال العلم يقوى ، فقد بدأ الملوك يزينون بلاطاتهم برجال العلم ، ويغدقون عليهم الأموال .

وزاد من دعم سلطان العلم والعلماء ، تفجر الثورة الصناعية فى اوربا ، فى القرن الثامن عشر ، واعتماد هذه الثورة على العلماء أساساً ، سواء فى تفجرها ، وفى استمرار تطوير الآلات والمصانع بعد تفجرها .

وكان أن « هاجم العلماء فى بحثهم العلمى ، مسائل تتصل بالدين ، من قريب أو من بعيد ، فآمن الناس بأقوالهم فيها ، كما آمنوا بأبحاثهم العلمية الأخرى ، فكان لذلك أثره فى ضعف موجة الدين فى أوربا » (٢) .

« وزاد الأمر إشكالا ، والناس انحيازاً إلى العلم ، موقف رجال الكنيسة » ، الذين « أنكروا على العلماء نظرياتهم ، واضطهدوهم أيام كانت السلطة فى أيديهم » (٣) .

غير أن هذه الخصومة ، التى حدثت فى ظل المسيحية ، بين الدين والعلم ، ليست هى القاعدة ، وإنما هى : الاستثناء من القاعدة .

---

(١) أبو الحسن الندوى (مرجع سابق) ، ص ١٩٢ .
(٢) أحمد أمين : « العلم والدين » ــ فيض الخاطر ــ الجزء الرابع ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ ١٩٤٣ ، ص ١٤٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

وإنما القاعدة هى أن يتعاون الدين والعلم ، وألا يتخاصما أبداً ، لأن كلاهما يسعى إلى الحقيقة .

هذا إذا كان الدين صحيحاً ، وإذا كان العلم علماً .

والتاريخ — القديم والحديث — يؤكد ما ندعيه .

العلم والدين فى العصور القديمة :

قامت الحضارة الإنسانية الأولى على ضفاف الأنهار ، فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وفى آسيا ، « فقد ازدهرت هناك الحضارات الهندوكية والصينية والفارسية والفينيقية والمصرية القديمة واليونانية والرومانية وغيرها .

ولكل من هذه الحضارات تاريخ شيق ، يدل على مدى ما بلغته شعوبها من الرقى الفكرى والاجتماعى والروحى ، كما تميز كل مجتمع من هذه المجتمعات بمثله العليا ، وتقاليده ، ونظام حكمه ، وطريقة تربيته للنشء ، وإعداده للحياة ، وفقاً للسائد فى المجتمع من عقائد وفلسفات ، ووفقاً لحالته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ووفقاً لظروفه الطبيعية ، ولمستواه الثقافى »(١).

وفى هذا الحضارات جميعاً ، نجد حقيقة أساسية ، وهى تلك العلاقة العضوية الواضحة ، بين الدين والعلم .

ولا نقصد بالدين هنا ديناً سماوياً بالضرورة ، وإنما نقصد به « فلسفة الحياة بالنسبة إلى الأمم التى تدين بها »(٢)، فتوفر لها القوة ، التى « لا تضارعها

---

(١) فتحية حسن سليمان (مرجع سابق) ، ص ز — من المقدمة .

(٢) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الاسلام — القاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٧ .

قوة العصبية ، ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين»(١)، وذلك لأنها الفلسفة «التى يدين بها فرد ، أو تدين بها جماعة ، والتى تفسر بها — وفى ضوئها — ما تعلم وما لا تعلم من حقائق الكون والحياة .

وفى ظل هذه التفسيرات ، التى قد تصح وقد لا تصح ، يتحقق (التوازن النفسى) للإنسان ، ومن هنا كانت العقيدة الدينية » «مكوناً أساسياً من مكوناته ، لأن اختلال هذا التوازن النفسى للإنسان، يهدمه هدماً »(٢).

وتبدو هذه العلاقة العضوية الواضحة بين الدين والعلم، واضحة فى هذه المجتمعات القديمة ، فى أن هذه المجتمعات القديمة ، سواء فى ذلك «مصر والهند والصين وفارس ، وغيرها من الأمم ذات الحضارات فى الشرق القديم ، كانت لها فلسفاتها، التى انطوت عليها دياناتها »،وأن هذه «الفلسفات لم تكن فلسفات بالمعنى الفلسفى الدقيق ، بقدر ما كانت ألواناً من الحكمة ، وضروباً من المبادىء والقواعد،مما كان يتصل من قريب أو من بعيد ،بالدين والعقائد»(٣)، وفى أن رجال الدين، كانوا هم المسئولين عن توجيه عجلة الحياة فى هذه المجتمعات القديمة ،كما كانوا هم المسئولين عن (التشكيل الأيديولوجى) للناس ، وعن التوجيه العلمى والحضارى للمجتمع ، ومن ثم نمت الحضارة

---

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام ، وأباطيل خصومه — دار الاسلام — القاهرة — ١٩٥٧ ، ص ٢٠ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية ، والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) رينيه ديكارت : مقال عن المنهج — ترجمة محمود محمد الخضيرى — الطبعة الثانية — راجعها وقدم لها : الدكتور محمد مصطفى حلمى — من (روائع الفكر الانسانى) — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر — ١٩٦٨ ، ص ٣ ، ٤ — من التقديم ، للدكتور محمد مصطفى حلمى .

الهندية القديمة فى ظل البوذية ، ونمت الحضارة الصينية فى ظل الكونفوشيوسية ، ونمت الحضارة الفارسية فى ظل الزرادشتية ، ونمت الحضارة المصرية فى ظل المعتقدات الدينية الفرعونية — وكانت كل حضارة منها مختلفة عن الحضارات الأخريات ، فى قليل أو كثير .

« وفى مصر القديمة مثلا ، كان الكاهن هو العالم ، وهو الفيلسوف ، وهو الطبيب ، وهو الفلكى والرياضى . . إلخ . وقد بقى رجال الدين محتفظين بهذه العلوم ، كنفائس سحرية ، لا تعلم لطلبتها إلا سراً ، خوفاً على ضياع العلم أو تحريفه ، بواسطة العامة ، وكان منهم الأطباء والصيادلة والسحرة ، وذلك لأن العلم كان عندهم مختلطاً بالدين والفلسفة »(١) .

وما يقال عن مصر القديمة فى هذا المجال ، يمكن أن يقال عن كل مجتمع متحضر قديم .

وفى ظل هذه (الهيمنة) الدينية على العلم والحضارة فى مصر القديمة ، تقدمت مصر حضارياً ، فى اتجاه رسمه الكهنة وحددوه مسبقاً ، فلقد « أخضع الكهنة لنفوذهم الفنون والحرف والعلم ، ومختلف المناشط العليا فى الدولة » ، « بل عمل الكهنة بسلطاتهم الواسعة المطلقة ، على صهر الاتجاهات العلمية والفنية والحرفية ، فى بوتقة التقاليد ، التى كانوا هم أنفسهم يوجدونها ، ويعملون على تنميتها . وكان الخروج على هذه التقاليد كفراً وزندقة ، بل ثورة على الإله »(٢) .

وفى ظل هذه (الهيمنة) الدينية ، يمكن فهم التقدم فى مجالات معينة.

---

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفى : أصالة العلم وانحراف العلماء — رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) — دار نهضة مصر للطبع والنشر — ١٩٦٩ ، ص ٦ .

(٢) دكتور سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى — عالم الكتب — ١٩٧٠ ، ص ٦٤ .

كان المصريون القدماء يؤمنون بخلود الروح ، وباليوم الآخر ، ومن ثم تقدمت الهندسة لبناء الأهرام والمقابر ، وتقدمت الكيمياء والطب، لتحنيط الموتى ، وتقدم الفلك ، لخدمة حاجات البيئة الزراعية .. ثم تقدمت الفنون المختلفة ، لاتصالها من قريب أو من بعيد ، بمعتقدات المصريين القدماء ، وحاجياتهم اليومية ، التى كان يشرف عليها الكهنة أيضاً .

ومن ثم جعل المصرى القديم، «من أحجار الأرض نحاساً وذهباً وطلاء، ظل خالداً ، يزين ببهائه وثبات ألوانه جبين الدهر ، لم تنل منه السنون ، ثم جعل من رمال الصحراء زجاجاً ، ومن طمى النيل فخاراً ، بل ومن أعشاب الوادى وخاماته ألواناً وعقوداً » (١) ، و « كان قدماء المصريين مهرة فى دباغة الجلود ، وصناعة الزجاج والمينا ، وتحضير بعض الأصباغ الطبية » ، وكانوا «يشكلون الذهب والنحاس والرصاص والفضة والبرونز والقصدير، وذلك منذ خمسة آلاف سنة » (٢) .

وما حدث فى مصر القديمة ، حدث فى غيرها من المجتمعات ذات الحضارة القديمة ، وإن كان فى وقت متأخر ، وبصورة مختلفة . . حسب العقيدة الدينية . . ودرجة التقدم الحضارى .

مثال ذلك ، أنه فى بابل (فى آسيا الصغرى)، « لم يكن البابليون يهتمون بالحياة بعد الموت ، كما كان يفعل المصريون ، لذلك لم يكونوا بنائى قبور » ، ولأن شعب بابل كان يؤمن « بالخرافات ، كان يصنع تماثيل على هيئة ثيران،

---

(١) ك . ر . تيلر : الكيمياء والانسان ــ ترجمة الدكتور حسن عابدين ــ مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل ــ رقم (٤٤١) من (الألف كتاب) ــ دار الهلال ــ ١٩٦٢ ، ص ٥ ــ من التقديم ، للدكتور عبد الفتاح اسماعيل .

(٢) الدكتور هارى نيكولز هولمز : قصة الكيمياء ، من خلال أنبوبة الاختبار ــ ترجمة الدكتور ألفونس رياض ، والدكتور عبد العظيم عباس ــ مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل ــ رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) ــ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ص ٦ ، ٧ .

لها رءوس آدمية ، لتحرس مداخل القصور ، من الأرواح الشريرة »(١) .

فالعلم والحضارة قاما فى العصور القديمة متصلين بالدين والعقيدة الدينية ، وفى ظلهما سارا ، وقطعا شوطاً بعيداً فى بعض المجتمعات القديمة .. لم يشذ من هذه المجتمعات القديمة سوى الإغريق .. الذين نما العلم على أيديهم ، بعيداً عن الدين ، لا فى ظله .

ولكنه الشذوذ ، ولكل قاعدة شواذ .

الخصومة المسيحية مع العلم :

المسيحية دين سماوى ، ومن ثم فلا وجه للمقارنة بينها وبين ديانات الحضارات التى سبقت الإشارة إليها .

ذلك أن هذه الديانات القديمة تعتبر نوعاً من أنواع (المواءمة) ، أو (الملاءمة)، بين النفس الإنسانية ، والبيئة التى يعيش فيها الإنسان ، ومن ثم اختلفت كل ديانة منها مع غيرها من الديانات ، بل تناقضت مع بعضها البعض فى بعض الأحيان ، فكان منها ما يتسم بالعنف والقسوة ، كالزرادشتية ، وما يتسم بالرقة واللين ، كالبوذية والبراهمانية .

وقد يقول قائل : ولكن ديانات السماء ذاتها ، تختلف فيما بينها هذا الاختلاف ، الذى يصل إلى حد التناقض ، كذلك الذى نراه بين المسيحية واليهودية .

ونقول : ولكن هذا الاختلاف الذى نراه بين ديانات السماء ، اختلاف

---

(١) ثيا ، وريتشارد برجير : من الحجارة الى ناطحات السحاب (قصة العمارة) — ترجمة المهندس محمد توفيق محمود — دار النهضة العربية — ١٩٦٢ ، ص ٢٤ .

شكلي ، لا يمس جوهر العقيدة في كل دين ، « ومن ثم يتفق الرسل جميعاً في هذا الجوهر ، ثم يختلفون بعد ذلك اختلافات (نوعية) ، حسب المرض الاجتماعي الذي استشرى بسبب فساد العقيدة . وقد اختلف هذا المرض من مجتمع إلى آخر »(١) .

وقد نزلت اليهودية إلى بني إسرائيل ، في وقت كانوا فيه ضعفاء مضطهدين ، (فنظمت) لهم حالهم ، بحيث يستحيل ضعفهم قوة ، فيتحررون من الظلم والاضطهاد — وهذا حقهم كآدميين .

ولكنهم — بعد تحررهم — اعتقدوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار . . وعاثوا في الأرض فساداً .

فكان لابد أن تأتي المسيحية — والحال هذه — دعوة مطلقة إلى خلاص الروح ، بعد « فراغ طويل المدى من الجدب الديني ، لبني إسرائيل »(٢) .

والسيد المسيح نفسه يعترف لتلاميذه ، بأنه ما جاء ليهدم ، بل ليكمل : « لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء . ما جئت لأنقض ، بل لأكمل . فإني الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد ، أو نقطة واحدة من الناموس ، حتى يكون الكل »(٣) .

كما يوجه رسله إلى (خراف بيت إسرائيل الضالة) ، لا إلى غيرهم :

---

(١) دكتور عبد الغني عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٦٢ .

(٢) ابراهيم خليل أحمد : محمد ، في التوراة والانجيل والقرآن — الطبعة الثالثة — مكتبة الوعي العربي ، ص ٨٠ .

(٣) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح الخامس : ١٧ ، ١٨ .

« هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا : إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (١) .

وقد تبين أن إصلاح حال بنى إسرائيل فى إطار المصالح الدنيوية مستحيل ، ومن ثم كان لا بد أن تتجه إلى (الروح) ، تقيم عليها أساس الإصلاح . ومن ثم ، لم تكن « المسيحية نظاماً فلسفياً ، يقوم على قوانين المنطق ، وإنما هى دين » « يضع للناس جملة قواعد ، يسترشدون بها فى أعمالهم ، ويبشر المؤمنين بحياة روحية مباركة ، ويتوعد العصاة بغضب الله ونار جهنم » (٢) .

لقد كانت الحاجة ماسة وقتها ، لا إلى شرائع وقوانين ، كانت موجودة بالفعل فى التوراة اليهودية ، وفى القوانين الرومانية ، بل إلى « التهذيب الروحى ، والتطهير الوجدانى » ، و « رد الروح والحياة إلى الضمير الإسرائيلى » (٣) ، و « تحرير الضمائر من ربقة الحروف والنصوص » (٤) .

ومن ثم كانت المسيحية (متممة) لليهودية ، ولم تكن (مناقضة) لها ، كما يبدو للوهلة الأولى .

ولكن التطور التاريخى للمسيحية ، وما خلفه ذلك التطور من خصومة تقليدية شديدة ، بين المسيحيين واليهود ، هو الذى خلف المسيحية واليهودية ،

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح العاشر : ٥ ، ٦ .

(٢) صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٦٤ ، ص ١٨٦ .

(٣) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام — الطبعة الثالثة — مطبعة دار الكتاب العربى — ١٩٥٢ ، ص ٧ .

(٤) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ ، ص ١٢٠ .

وكلتاهما تبدو وكأنها (نصف دين) ، لا دين كامل ، فالجانب الروحي لا زال يعوز اليهودية ، والجانب المادى لا زال يعوز المسيحية .

وهذا ما عمل الإسلام على تلافيه ، فنزل ديناً روحياً مادياً فى آن واحد.

وكان لهذا التكامل الإسلامى صداه : راحة وطمأنينة فى نفوس المؤمنين به، والمنصفين للحق والحقيقة ، وحقداً فى نفوس المتعصبين ضده، من اليهود والمسيحيين ، حتى أن بعض هؤلاء المتعصبين والحاقدين، لايرون فيه أكثر من أنه « تركيب ملفق من المذاهب اليهودية والمسيحية ، بالإضافة إلى التقاليد القومية الوثنية العربية »(١) — وهو هجوم يعكس الإحساس بالنقص فى نفوس القائلين به ، أكثر مما يحمل من الهجوم على الإسلام .

والمسيحية فى نزعتها الروحية تلك ، تعلن الحرب على كل مظهر دنيوى، وكل حاجة من حاجات الجسد ، لأن الروح والجسد لايجتمعان فى المسيحية، أو على حد تعبير بولس الرسول : « وإنما أقول : اسلكوا بالروح ، فلا تكملوا شهوة الجسد، لأن الجسد يشتهى ضد الروح ، والروح ضد الجسد . وهذان يقاوم أحدهما الآخر ، حتى تفعلون ما لاتريدون (٢) .

وكان كلام بولس هذا ، صدى لموعظة السيد المسيح : « حينئذ قال يسوع لتلاميذه : إن أراد أحد أن يأتى ورائى ، فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه ويتبعنى . فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من أجلى

---

(١) محمد عبد الله السمان : مفتريات اليونسكو على الاسلام — الطبعة الأولى — المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م ، ص ١٩ .

(٢) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الى أهل غلاطية — ٩ : الاصحاح الخامس : ١٦ ، ١٧ .

يجدها . لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ؟ » (١) .

وهى كذلك — فى نزعتها تلك — تعلن الحرب على العقل ، لأنه عدو الروح اللدود ، فالعقل بطبيعته يتعلق بحاجات الجسم ، ويهتم بها ، كما يتعلق بالدنيا ، التى يجب أن يلفظها الإنسان من حياته تماماً ، ويعيش فقيراً :

— « أيها الزناة والزوانى . أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله ؟ فمن أراد أن يكون محباً للعالم ، فقد صار عدواً لله » (٢) .

— « إن أردت أن تكون كاملا ، فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى » (٣) .

— « الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات . وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة ، أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » (٤) .

والسيد المسيح يوجه موعظته لبطرس قائلا : « (يابطرس ، اخلع الحكمة الجسدية ، تجد الحق تواً » ، و « خير لك أن تدخل الجنة جاهلا فقيراً ، ذا أعمال قليلة ، من أن تدخل الجحيم بأعمال عظيمة ، وأنت حكيم غنى » (٥) .

فخصومة المسيحية مع العلم تتبع خصومتها مع الكون ، وخصومتها مع

---

(١) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح التاسع : ٢٣ — ٢٧ .
— انجيل متى — ١ : الاصحاح السادس عشر : ٢٤ — ٢٨ .
(٢) العهد الجديد : رسالة يعقوب — ٢٠ : الاصحاح الرابع : ٤ .
(٣) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح التاسع عشر : ٢١ .
(٤) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح التاسع عشر : ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) انجيل برنابا : الفصل السابع والثمانون : ٨ ، ١١ ، ١٢ .

الكون نتيجة من نتائج انصرافها عن العالم المادى كله ، بعد أن أفسد هذا العالم بنى إسرائيل إفساداً .

ولو تممت المسيحية — كما أريدلها — شريعة بنى إسرائيل ، ما وجدت هذه الخصومة .

وهذا ماعمل له الإسلام ، كما سنرى فى الفصل التالى .

نتيجة خصومة المسيحية مع العلم :

وقد كانت نتيجة خصومة المسيحية مع العلم ، كنتيجة خصومتها مع الكون ، هى الإخفاق ، وذلك لأن هذه الخصومة لا تتفق مع منطق الأشياء ، فتقسيم الإنسان إلى (مناطق نفوذ) على هذا النحو ، بحيث يكون العقل والجسم فى جانب ، والروح فى جانب آخر ، أمر لا يتفق مع طبيعة الإنسان ، وإنما المنطقى أن تكون الروح والعقل والجسد — كما قال بذلك الإسلام ، وقال به العلم الحديث — كلا متكاملا (١) .

ولقد كانت نتيجة هذه الخصومة (المفتعلة) بين الروح والجسد — فى المسيحية — شراً على المسيحية ، فسرعان ما انقسمت فرقاً ومذاهب ، يكفر بعضها بعضاً .

واستطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تفرض نفسها على الواقع الأوربى قروناً ، مستخدمة السيف ، تقطع به رقاب الخارجين عليها ، والمنشقين عنها ، والقائلين بغير ما تقول ، كما سبق (٢) ، ولكن السيف — كما يقول بذلك التاريخ — لابد أن يتجه فى النهاية ، إلى صدر حامله .

---

(١) دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ١٢٠ .

(٢) ارجع الى ص ٦٨ — ٧٠ من الكتاب .

وأى نظام — سياسياً كان أو دينياً — يقيم حياته على القوة ، لابد أن تحطمه القوة فى النهاية ، لأن النظام لا يلجأ إلى القوة إلا ساعة يحس بعجزه عن الإقناع ، بالعقل أو باللسان .

فما أن جاء القرن الثانى عشر الميلادى ، حتى كان اتصال الغرب المسيحى بالشرق الإسلامى ، عن طريق ما يصطلح المؤرخون على تسميته (بمعابر الحضارة) (١) — قد آتى ثماره ، وتمثلت هذه الثمار فى (الاندفاع) فى طريق (العقل) ، رغم كل المخاطر .

وسادت أوروبا فى ذلك الوقت موجة من (التمرد) على الكنيسة ، تمثلت فى « ظهور موجة من الإلحاد والهرطقة ، ووضوح الحاجة إلى ضرورة التوفيق بين مطالب الإيمان المسيحى ، ومطالب العقل الإنسانى »(٢).

وبدأت الكنيسة — لأول مرة فى تاريخها — تدعى أن « العقيدة لا تستطيع أن تحيا مدعمة قوية ، بغير علم ومعرفة » (٣) ، وشرع رجالها فى إحداث هذا (التوافق) بين العقل الإنسانى ، والعقيدة المسيحية ، وكان أول من تصدى لمحاولة التوفيق هذه ، هو أبيلارد Abelard (١٠٧٩—١١٤٢)، والقديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas (١٢٢٥— ١٢٧٤)، ومن تبعهما من المدرسيين (٤).

---

(١) للوقوف على هذه المعابر ، ودور كل معبر منها ، تفصيلا — ارجع الى :

— عبد الغنى سيد أحمد عبود : دراسة مقارنة لنظام البحث العلمى ، فى الجمهورية العربية المتحدة ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفيتي — رسالة مقدمة الى كلية التربية جامعة عين شمس ، للحصول على درجة دكتور فلسفة فى التربية — قسم التربية المقارنة والادارة التعليمية (كلية التربية جامعة عين شمس) — القاهرة — ١٩٧٢ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى (مرجع سابق) ، ص ٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٤) تسمى الحركة التى قامت بالتوفيق بين العقيدة المسيحية والعقل ، بالحركة المدرسية ، ومن قاموا بها بالمدرسيين ، نسبة اليها .

وكانت آراء هؤلاء ، هى التى أدت إلى كل ماتم فى الغرب المسيحى من تغير ، تم فيما بعد فيه ، فقد رأى توماس الأكوينى أنه « لا تعارض بين اللاهوت والفلسفة ، أو بين الحقيقة المعلنة والعقل الإنسانى ، لأن الله هو خالق كل حقيقة » ، وبذلك « مهد الطريق على غير قصد منه ، لحركة الإصلاح البروتستنتى » ، وأدى « إلى إمكان القيام ببحث علمى كان محظوراً من قبل »(١).

وليس غريباً أن يصدر مثل هذا الكلام من مفكر أو فيلسوف ، ولكنه غريب حقاً أن يصدر من شيخ من شيوخ الكنيسة ، الذين « لم يكونوا يحملون دوماً عطفاً حقيقياً على الثقافة الفكرية » (٢) ، بسبب العقيدة المسيحية ذاتها ، كما رأيناها منذ قليل ، تعلن الحرب على الدنيا وعلى الجسد ، وعلى العقل وعلى الكون . استخلاصاً للروح من عذاب الآخرة .

ولكنه منطق التطور ، الذى فرض نفسه على الكنيسة وعلى رجالها ... قبل أن يجرفها التيار ويجرفهم .

وقد أدى هذا التغير فى النظرة إلى العلم وإلى العقل ، الذى اضطرت إليه الكنيسة ، إلى « قيام حركة حضارية شاملة فى الغرب الأوربى ، نطلق عليها فى التاريخ اسم (النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر) ، أو اسم (النهضة الوسيطة »(٣) ، وذلك للإيمان المطلق — الذى لم يكن موجوداً من قبل —

---

(١) رالف ت. فلوولنج : « الفلسفة الشخصانية » — فلسفة القرن العشرين — مجموعة مقالات فى المذاهب الفلسفية المعاصرة — نشرها : داجوبرت د. رونز — ترجمه : عثمان نويه — راجعه : الدكتور زكى نجيب محمود — رقم (٤٦٤) من (الألف كتاب) — مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٣ ، ص ١٠٣ .

(٢) الدكتور عبد الله عبد الدائم : تاريخ التربية — من منشورات كلية التربية بجامعة دمشق — مطبعة جامعة دمشق — ١٩٦٠ ، ص ٧٥ .

(٣) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق) ، ص ٤٣ .

بما يأتى به « العقل الإنسانى ، من حيث نشاطه الفعلى ، فى العلم والفن والأخلاق » (١) .

كما أدى هذا التغير فى النظرة إلى العلم ، إلى مهاجمة توماس الأكوينى نفسه ، وغيره من المدرسيين ، ممن ضيعوا – ويضيعون – وقتهم فى الجدل الميتافيزيقى ، دون أن يولوا العلم إلا القدر الضئيل من وقتهم ، وتزعم هذه الحركة الجديدة، أولئك العلماء الذين أتيح لهم أن يتعلموا علوم العرب، ويقفوا على سر نهضتهم ، فيلقوا بأنفسهم بحماسة فى غمار العلوم التجريبية والرياضية والفلسفية ، « من أمثال روجر بيكون » (٢) (حوالى ١٢١٤ — ١٢٩٢ تقريباً) ، الذى اطلع على بحوث الحسن بن الهيثم ، وتأثر به ، وبمنهجه العلمى ، ونذر نفسه لنشره بين زملائه الأوربيين ، متحملا فى سبيل ذلك ما تحمله سابقوه ، من انتقاد وسخرية ، ومن سجن وتعذيب (٣) .

ثم أدى هذا التغير أخيراً ، إلى (الشرخ) الكبير ، الذى حدث فى العقيدة المسيحية ذاتها ، بعد ثورة الإصلاح الدينى، التى قام بها مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ — ١٥٣١) ، والتى كان واضحاً تأثرها بالإسلام ، « فى مثل إبطال الكهنوتية ، وتحريم صكوك الغفران » (٤) ، والتى أدت إلى تحقيق (المصالحة) بين الإنسان الأوربى وعقله ، وتحقيق

---

(١) اميل بربيه : اتجاهات الفلسفة المعاصرة – ترجمه دكتور محمود قاسم – راجعه دكتور محمد القصاص – رقم (١٠) من (الألف كتاب) – دار الكشاف – بيروت – ١٩٥٦ ، ص ٦٨ .

(٢) برتراند رسل : النظرة العلمية – تعريب عثمان نويه – مراجعة الدكتور ابراهيم حلمى عبدالرحمن – الجامعة العربية (الادارة الثقافية) – مكتبة الانجلو المصرية ، ص ٩ .

(3) GUES T,GOERGE; OP. cit , p. 110.

(٤) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : القرآن وقضايا الانسان – الطبعة الأولى – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٧٢ ، ص ١٠٥ .

(المصالحة) بينه وبين العلم ، وتحقيقها بينه وبين الكون ، ثم أدت — نتيجة لذلك — إلى ذلك التقدم العلمى ، والرقى الحضارى ، الذى بلغ ذروته فى هذا القرن العشرين ، بحيث صارت (الحضارة الأوربية)، نموذجاً تحتذيه البلاد الراغبة فى التقدم ، شيوعية كانت أو رأسمالية ، مسيحية أو إسلامية ، بعيدة عن القارة الأوربية أو قريبة منها .

ولكن هذا التقدم تم ... على حساب المسيحية ذاتها .

وبعد :

فقد ظلموها ، حين فصلوها عن أمها (اليهودية) ، لأنها بنتها الشرعية، التى جاءت لهداية أمها ، ولتضع أقدامها على الطريق إلى الله .

ثم ظلموا أنفسهم حين أقروا بها ، وأنكروا أمها وتنكروا لها .. ثم خاصموها .

وكانت النتيجة أنها جاءت بلا أم.. وأنهم عاشوا بلاسند يربطهم بالحياة البشرية على الأرض ، مكتفين بالتحليق فى آفاق خيالية ، لا يستطيع التحليق فيها إلا الملائكة .

ولكنهم بشر .

وببشريتهم ، لم يستطيعوا أن يرتقوا إلى مستواها ، فهبطوا وهبطوا .

ولما أرادوا أن يتقدموا .. وجدوها عبئاً ثقيلا عليهم .. فتخلصوا منها .. وانطلقوا .

وصاروا فى انطلاقهم أكثر تعلقاً بالدنيا من اليهود .

ألم أقل : إنهم ظلموها وظلموا أنفسهم ؟

وأكثر من ذلك أنهم أرادوا أن يظلوا معهم.

وظلنا أنفسنا — بالفعل — دهراً .. ثم عدنا .

عدنا إليه .. بعد أن ضعنا بدونه .

وجدناه من جديد، فوجدنا أنفسنا .

إنه العلاج ... وليتهم عرفوه :

— « قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم .. ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

والدين الحق، هو ذلك الدين الذى ينظر إلى الإنسان كإنسان ، لا كملاك أو كشيطان .

وحين ينظر الدين إلى الإنسان كإنسان ، فإنه سيستطيع أن (ينتشله) من الأرض ، ويحلق به فى آفاق الخير والفضيلة .

وستتم مصالحة — لابد أن تتم — بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبينه وبين الطبيعة التى يعيش فى أحضانها ، وبينه وبين الكون، بأرضه وسمائه .. وبينه وبين الله ، خالقه وخالق الحياة والأحياء .

وسيتحقق للإنسان فهم أعمق للطبيعة ، واستغلال أحسن لها .

وسيتحقق — من خلال هذا الفهم وذلك الاستغلال — خير الإنسان .

وسيعتبر ذلك كله .. عبادة ، يكافأ عليها الإنسان يوم القيامة ، جنة

---

(١) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ٦٤ .

عرضها كعرض السموات والأرض .. مثلما كوفئ عليها فى الدنيا ، استمتاعاً بهذه الحياة الدنيا .

فلم يخلق الإنسان فى الدنيا ، ليشقى فيها بلا عائد لشقائه ، ولم يخلق الله الرزق من حول الإنسان لينصرف عنه .

إنه يكون كفراً بالله خالق الإنسان ، وخالق الرزق .

وكل ما يطلب إلى الإنسان : هو أن يأكل ويشكر . . . لا أن يأكل ويكفر ، وأن يكون طعامه من حلال ، لا من حرام ، وأن يكون للناس فيما رزق حق . . وألا يكون الطعام والشراب غاية حياته ، بل يكونان مجرد وسيلة .

فما خلق الإنسان ليأكل ويشرب ، وإنما خلق ليضطلع بمهام . . الاستخلاف العظيم .

ولن يستطيع أن يضطلع بهذه المهام . . إلا إذا صالح الطبيعة . . . والكون ، وإلا ففيم استخلف الإنسان ؟

ومن أجل هذا كله .. كانت رسالة الإسلام قد صارت ضرورة . . . بعد ست قرون من مولد السيد المسيح .. صار الإنسان فيها . . . غير إنسان .

الفصل الرابع

الإسلام . . والكون

تقـديم :

وجاء الإسلام ، فى وقت كانت علاقة الإنسـان بالطبيعةفيه قد بلغت قمة فسادها . . بسبب فساد العقيدة الدينية ، سواء فى ذلك عقيدة الكتابيين ، أتباع الديانات السماوية ، وعقيدة الوثنيين ، الذى لم يؤمنوا بنبى من أنبياء الله .

وكان على الإسلام أن يصحح العقيدة ، ويصالح الإنسان على الله — الله الحق ، ثم يصالح الإنسان . . على الـكون .

وبدون تصحيح العقيدة ، لم يكن الإسلام ليستطيع أن يحول أعراب مكة ، ومن حولها ، « من (جاهليين) ، إلى حماة للحضارة ، ومتشربين لها، ثم مساهمين فيها بعد ذلك »(١) .

وبدون تحقيق (المصالحة) بين الإنسان والله . . لم يكن المسلمون القلة ، ليهزموا أعداءهم على كثرتهم (٢) ، فى كل معركة . . فى بدر ، وفى أحد . . وفى الردة ، وفى اليرموك . . وفى غيرها وغيرها .

---

(١) دكتور عبدالغنى عبود : « التربية ومحو الأمية الأيديولوجية » — تعليم الجماهير — مجلة متخصصة ، تصدر عن : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار — السنة الثالثة — العدد السادس — مايو ١٩٧٦ ، ص ٣١ .

(٢) لم يحدث فى أية معركة من معارك الاسلام الأولى ، أن كان جيش المسلمين مكافئا لجيش الكفار ، فى العدد أو العتاد ، وانما كان جيش الكفار يفوق جيش المسلمين عددا وعدة . وفى غزوة حنين ، كان عدد المسلمين قريبا

وبدون تحقيق (المصالحة) بين الإنسان والكون .. لم تكن الحركة العلمية الإسلامية لتتجه هذا الاتجاه المتشعب ، المتعدد الجوانب . . تبحث عن (الحقيقة) ، أينما كانت هذه الحقيقة ، وكيف كانت .

ولنفهم علاقة الإسلام بالكون على هذا النحو حق الفهم، نرى ضرورة التمهيد (بمدخل أيديولوجى) ، نتعرف به — ومن خلاله — بإيجاز شديد — على الأيديولوجيا الإسلامية، أى تصور الإسلام للفرد والمجتمع، وعلاقتهما بالله ، وبالكون ، وديناميكية الحياة التى يسيران عليها وفق هذا التصور .

الأيديولوجيا الاسلامية :

لموضوع (الأيديولوجيا الإسلامية) جوانب كثيرة ، تتسع لها مجلدات ومجلدات ، وتضيق بها صفحات محدودة فى مثل هذا الكتاب (الثانى) ، ولكنها الضرورة : أن نضطر إلى إيجازها فى سطور محدودة — والله الموفق إلى عدم الإخلال ، رغم الإيجاز الشديد ، وضرورة التركيز فيه على الجانب الكونى من هذه الأيديولوجيا ، ليكون متمشياً مع موضوع الدراسة .

وقد رأينا فى الكتاب الأول من هذه السلسلة أن « الله سبحانه وتعالى هو جوهر العقيدة الإسلامية ، ومحورها الأساسى »[1] ، وأن الإنسان

=

من عدد الكفار . فقالوا (لن نهزم اليوم من قلة) — فكادوا يهزمون هزيمة منكرة . لولا ثبات الرسول وصحبه من حوله .. ولولا تأييد الله . وفيها نزل قول الله سبحانه : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها . وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » (التوبة — ٩ : ٢٥ ، ٢٦) .

(١) دكتور عبدالغنى عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٧٠ .

يحتل فى العقيدة الإسلامية منزلة، لا تعلو عليها سوى منزلة الله سبحانه»(١).

والله سبحانه هو محور العقيدة الإسلامية ، لأنه هو خالق هذا الكون الفسيح ، بكل مافيه من عوالم ومخلوقات ، رغم عظمتها ودقتها وبديع صنعها، كما رأيناها فى الفصلين الأولين من هذا الكتاب .

والإنسان يحتل المنزلة الثانية بعد الله سبحانه ، لأن الله سبحانه ، خالقه وخالق الكون ، ومدبر الأمر كله ، أراد له ذلك يوم خلقه :

— « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون »(٢) .

وقد خلق الله سبحانه الإنسان — يوم خلقه —مزوداً بإمكانيات ذلك الاستخلاف ، فقد خلقه « جسماً كثيفاً ، وروحاً شفافاً ، جسماً يشده إلى الأرض ، وروحاً يتطلع إلى السماء ، جسماً له دوافعه وشهواته ، وروحاً له آفاقه وتطلعاته ، جسماً له مطالب الحيوان ، وروحاً له أشواق كأشواق الملائكة»(٣) ، وبذلك جمع فيه ما تفرق فى خلق الله جميعاً — ففيه روحانية الملائكة ، وفيه حيوانية الحيوان ، وفيه — بالإضافة إلى ذلك — نباتية وجمادية ، وفيه ما انفرد به دون خلق الله جميعاً ، وهو « العقل والفكر » ، « الخاصية التى تجعله إنساناً » (٤) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٣٠ .
(٣) الدكتور يوسف القرضاوى : الايمان والحياة — الطبعة الثانية — مكتبة وهبة — ١٩٧٣ ، ص ٧٦ .
(٤) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ، معجزات الرسول ، اعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الاسلام — اعداد وتقديم : أحمد فراج — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٩٧٥ ، ص ٤٠ .

ولكن تكريم الله للإنسان على هذا النحو ، أحقد عليه واحداً من الملائكة المقربين ، وهو إبليس ، حقداً أنساه نفسه أمام الله سبحانه ، ففسق عن أمر ربه،ورفض السجود لهذا الإنسان كما أمره ، فطرد من رحمة الله . . وظل يكيد لهذا الإنسان منذ كان آدم فى الجنة ، وحتى اليوم .

« فاستخلاف الله للإنسان على هذا النحو تشريف له ، ولكن هذا الاستخلاف ذاته يلقى على الإنسان أعباء ومسئوليات ، لا مهرب له من القيام بتبعاتها .

و (الذات الإنسانية) مزودة (بالوسائل) التى يستطيع أن (يرتفع) بها إلى أفق السمو ، للقيام بتبعات (الاستخلاف) ، وهى — كذلك — مزودة (بالوسائل) ، التى يستطيع أن (يهبط) بها إلى (حضيض) البهيمية . . حيث يريد الشيطان » (١) .

والإنسان يصل إلى هذه المرتبة أو تلك ، من خلال تفكيره وعمله ، وعلاقته بالناس والأشياء ، فى بيئته التى يحيا فيها . . ولا يصل إليها من طريق آخر .

وتتلخص رسالة الإنسان فى الحياة، فى «نشر الحق والعدل والخير»(٢)، ولا يتسنى له ذلك كله ، ما لم يجعل نفسه صورة لما يدعو إليه ، وما لم يدفع بعجلة الحياة من حوله إلى مستوى ما يدعو إليه ، وما لم يقم علاقة طيبة بينه

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : التعليم مدى الحياة فى الاسلام — دراسة تقدمت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جامعة الدول العربية) الى المؤتمر الدولى للتنمية وتعليم الكبار ، الذى عقد فى المدة من ٢١ — ٢٦ يونيو ١٩٧٦ بدار السلام — تنزانيا ، ص ٦ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٨٢ .

وبين الكون الذى يعيش فيه ، فهماً لأسراره ، واستغلالا لإمكانياته ، واستفادة بما أودعه الله فيه من كنوز وخيرات .

وهو لا يقدر على ذلك كله، ما لم يستغل عقله وفكره إلى أقصى الحدود.

وغذاء العقل هو القراءة ، ومن ثم لم يكن غريباً أن يكون أول (أمر) ينزل من السماء على قلب محمد ، وعلى قلوب أتباعه بالتبعية — أمراً بالقراءة:

— « اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم »(١) .

و (القراءة) «التى أمر بها الإسلام ، أعم وأشمل من (القراءة) كما تراها الدراسات الحديثة »(٢) ، فى البلاد التى قطعت شوطاً كبيراً فى طريق التقدم . إنها لا تقتصر على قراءة الكلمة المكتوبة ، وإنما تتعداها إلى (قراءة) كل ما تسمعه الأذن ، وما تقع عليه العين ، وما تمسه أية حاسة من حواس الإنسان .

إنها قراءة للمكتوب وللمنظور وللمسموع . . وللمحسوس أيضاً .

إنها (اندماج) كامل فى هذا الكون ، الذى نعيش فيه .

وهى قراءة لا تستهدف السيطرة على الطبيعة وحدها ، كما هو الحال فى المدنيات الحديثة ، ولكنها قراءة تستهدف — بالإضافة إلى ذلك — الارتقاء

---

(١) قرآن كريم : العلق — ٩٦ : ١ — ٥ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : « الاسلام وتحدى العصر : التربية المستمرة فى الاسلام » — تعليم الجماهير — مجلة متخصصة ، تصدر من الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار — السنة الثالثة — العدد ٥ — يناير (كانون الثانى) ١٩٧٦ (عدد خاص) ، ص ٧٨ .

بالإنسان إلى مراتب الكمال ، بفهمه لنفسه ، وفهمه للكون المحيط به . . .
وصولا — من خلاله — إلى الله .. مثل الإنسان المسلم الأعلى .

الاســلام والكون :

وإذا كانت الآية الأولى ، التي تنزل بها أمين الوحي جبريل ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أمراً بالقراءة ، فإن الآية الثانية لفتة إلى جزء من هذا الكون الذي ننتمي إليه ، ففيها لفت إلى خلق الإنسان من علق ، وفيها لفت إلى أصل هذا الإنسان الجبار المتكبر المتمرد : حيوان منوى ، وبويضة ، حقيران تافهان .. كانت لهما في الرحم دورات ودورات ، وصلت بهما إلى هذا الإنسان . . . فعلام تكبره وتجبره ؟ !

ومنذ نزلت هذه الآيات الأولى، ويكاد الحديث عن الكون لا يتوقف، في سورة من سور القرآن تنزل بها الوحي ، خاصة في العهد الأول (المكي) :

— « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى »(١) .

— « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى »(٢) .

— « ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات ألفافاً »(٣) .

---

(١) قرآن كريم : الضحى — ٩٣ : ١ — ٣ .
(٢) قرآن كريم : الليل — ٩٢ : ١ — ٤ .
(٣) قرآن كريم : النبأ — ٧٨ : ٦ — ١٦ .

— « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر ، مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » (١) .

وتكاد الآيات الكونية فى القرآن لا تقف عند حصر ، وقد أشرنا إلى كثير منها فى الفصلين الأولين ، عند الحديث عن الكون فى الفصل الأول ، وعن الأرض فى الفصل الثانى .

وهذه الآيات الكونية ، لا تأتى فى القرآن الكريم اعتباطاً ، وإنما هى تأتى للعظة والعبرة ، لتدل على قدرة الله الخالق ، ومن ثم فهى تأتى بمناسبات — فقد تأتى رداً على المنكرين للرسالة والرسول ، وللبعث بعد الموت ، كما هو الحال فيما أوردناه منها من قبل .

وقد تأتى لتربط الإنسان بالكون — فيعرف رسالته ، ودوره المنوط به فيه ، وعلى أساس الرسالة والدور ، سيكون حسابه يوم القيامة :

— « والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ . فلينظر الإنسان : مم خلق ؟ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر » (٢) .

وقد تأتى لتربط الإنسان بالكون والتاريخ ، ليتخذ من دروس التاريخ السابق عظة وعبرة ، فلا يضل ولا يطغى :

---

(١) قرآن كريم : فاطر — ٣٥ : ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) قرآن كريم : الطارق — ٨٦ : ١ — ٨ .

— « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها. ولا يخاف عقباها »(١) .

— « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر ؟ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ؟ إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد »(٢) .

والقرآن ليس كتاباً فى الجغرافيا أو التاريخ ، وليس كتاباً فى الفلك أو علم الحياة أو الطبيعة ، وليس كتاباً فى الصيدلة أو الطب ، وليس كتاباً فى الاقتصاد أو الاجتماع أو القانون ، رغم ما فيه من معلومات تتصل بهذا العلم أو ذاك .

وهى معلومات كلها - رغم ذلك - أثبت العلم الحديث - ويثبت - صحتها ؛ كما رأينا فى الآيات التى تتصل بالكون فى الفصلين الأولين .

إنه كتاب عقيدة وتشريع ، وما يتصل من آياته بهذا العلم أو ذاك ، لم يأت به « لتأصيل أصول علمية ، وتثبيت قواعد فنية ، وإنما ذكر ذلك فى سياق العظة والعبرة ، وفى مقام الإرشاد والاعتبار ، والاستدلال على

---

(١) قرآن كريم : الشمس — ٩١ : ١ — ١٥ .
(٢) قرآن كريم : الفجر — ٨٩ : ١ — ١٤ .

قدرة الخالق ، وحكمته فى مخلوقاته ، ليتوجه الإنسان ببصيرته إلى خالقه ، فيسبحه ويمجده ، ويعبده ويحبه ، (١) .

ومعجزة المعجزات فى كتاب الله فيما يتصل بالكون ، أنه عرضها عرضاً ، استطاع استيعابه أعراب مكة ، ويستطيع استيعابه إنسان القرن العشرين والقرون التالية.

وفى هذه القرون الطويلة ، منذ نزل القرآن الكريم ، وحتى اليوم ، تغير العلم وتبدل ، وانقلبت الحقائق رأساً على عقب ، وأثبت القرآن — ويثبت — أنه هو هو ، الكتاب الذى (لا يأتيـــه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ، فهو لم يأت بحقيقة كونية لم يوافق عليها أعراب مكة ، على الرغم مما كانوا يتصيدون للقرآن ، وعلى قدر ما كان يتحداهم . . ولم يأت بحقيقة كونية ، أثبت العلم الحديث صحتها بالفعل ، وكانت مخالفة لما جاء به ، على الرغم مما يحارب الماديون — وما أكثرهم اليوم فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها — الإسلام ، ويتصيدون له .

فكيف عبر عن الحقيقة الكونية ،التعبير الذى يستسيغه العقل المتحجر، ويقبله العقل المتحضر ؟ تلك هى معجزة المعجزات فيه ·

وأكثر من هذه المعجزة إعجازاً فيه ، أنه ككتاب عقيدة ، يدعو إلى العلم .فالعلم لايهدم العقيدة فيه ، وإنما هو يدعمها .« وخير مايطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم،أن يحث على التفكير، ولا يتضمن حكما من الأحكام، يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ، ما استطاع ، حيثما استطاع .. وكل هذا مكفول للمسلم فى كتابه ، كما لم يكفل

---

(١) عبد الوهاب حمودة (مرجع سابق) ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

قط فى كتب الأديان .. فهو يجعل التفكير السليم ، والنظر الصحيح إلى آيات خلقه ، وسيلة من وسائل الإيمان بالله » .

« وهو يحث المسلم على أن يفكر فى عالم النفس ، كما يفكر فى عالم الطبيعة » .

« وهو يعظ المخالفين والمصدقين عظة واحدة ، وهى التفكير الذى يغنى عن جميع العظات » .

« فالقرآن الكريم يطابق العلم ، أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى ، الذى تستقيم به العقيدة ، ولا تتعرض للنقائض والأظانين ، كلما تبدلت القواعد العلمية ، أو تتابعت الكشوف بجديد ، ينقض القديم ، أو يبطل التخمين ..

وفضيلة الإسلام الكبرى أن يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ، ويحثهم على ولوجها ، والتقدم فيها ، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن ، وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم »(١) .

إن « القرآن هو كلام الله ، والكون خلق الله ، وما دام الذى خلق الكون هو الذى قال ذلك الكلام ، فيجب بداهة ألا تتعارض حقيقة قرآنية ، مع حقيقة كونية »(٢) .

وقارئ القرآن يرى أنه « كلما تجلت الحقائق العلمية ، نجد الأداء البيانى مواكباً لهذه الحقائق ، ويعطيها لنا بعطاء من يعلم الحقائق : كيف

---

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية (مرجع سابق) ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى (مرجع سابق) ، ص ١١٨ .

تـكون ، ويؤديها بالأسلوب الذى يتفق »[١] معها .

ومن دلائل إعجازه — حقيقة — لذلك — « أن يخطئ الناس فى بعض تفسيره على اختلاف العصور ، لضعف وسائلهم العلمية ، ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات ، أوتحيط بالأرض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها فى كشف معانيه » (٢).

فهو دائماً جديد .. متجدد ، و « إعجازه العلمى ليس فى اشتماله على النظريات العلمية ، التى تتجدد وتتبدل ، وتـكون ثمرة للجهد البشرى فى البحث والنظر ، وإنما فى حثه على التفـكير » « فى مخلوقات الله فى السماء والأرض » ، و « فى نفسه ، وفى الأرض التى يعمرها ، وفى الطبيعة التى تحيط به »(٣ .

الخلافات بين القرآن والعلم الحديث :

ومن ثم فلا خلاف يمكن أن يوجد بين الإسلام والعلم الحديث ، لا اليوم ولا غداً ، وإنما الخلاف يمكن أن يوجد بين الإسلام والعلماء ، الذين ينحرفون عن خط العلم ، بإدخال (الهوى) عليه ، متمثلا فى (مناهج غير علمية)، يستخدمونها للوصول إلى حقائق (علمية) .

والقول بأنه لا خلاف بين القرآن (أو الإسلام) ، وما يقول به العلم الحديث — هكذا مطلقاً — قول تنقصه الدقة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) أحمد الشرباصى : قصة التفسير — رقم (٥٤) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول فبراير ١٩٦٢ ، ص ١٢٤ .

(٣) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن — الطبعة الثانية — منشورات العصر الحديث — ١٣٩٣ — ١٩٧٣ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

والقائلون بذلك — ولا شك — يقولون به من منطلق الغيرة على الإسلام ، لا من أى منطلق آخر ، ولكنهم يسيئون إلى الإسلام من حيث لا يشعرون .

ذلك أن الإسلام ليس مطالباً بأن يساير كل (صيحة) من صيحات العلم ، وإلا (لهبط) إلى مستوى العلم ، الذى يوصف بأنه دائم التغير والتبدل .

كانت الأرض مسطحة ، ثم صارت مستديرة ، ثم صارت بيضاوية .

ولو ساير القرآن الكريم خطى العلم فيما قال فى هذه الحقيقة ، لكانت الكارثة ، ولكنه ظل فى عليائه ، والعلم يلهث الخطى سعياً وراء الحقيقة، التى قد يصل إليها وقد لا يصل .

وقد حزن كثير من المسلمين حين تمكن العلم الحديث من اجتياز الفضاء المحيط بالأرض ، ثم من النزول على سطح القمر .

ولم يسترح هؤلاء ، إلا عندما علموا أن القمر ليس فى السماء ، وأنه لا يزيد على أن يكون تابعاً للأرض ، أو ضاحية من ضواحيها (١) .

ومحاولات العلم الحديث فى اكتشاف الكون المحيط بنا ، محاولات يحمدها الإنسان المعاصر ، ويدعو إليها الإسلام — كما سبق ، ومما يشرف المسلم ، أن كل ما تأتى به بحوث العلماء فى هذا المجال ، تؤكد ما قال به الإسلام .

ولا يختلف العلم الحديث مع الإسلام ، إلا عندما يتخطى حدود (المنهج العلمى) ، ليترك ما هو أمامه — يدرسه — من أمور كونية .. إلى دراسة

---

(١) ارجع الى ص ٤٢ ، ٤٣ من الكتاب .

الماضى ، ماضى الأرض ، وماضى الكون ، وماضى الإنسان ، ويقول : إن منشأ الكون سحابة عظمى من الغبار والغاز ، تجمدت مادتها ، ثم انفجرت فكانت المجرات التى فى السماء ، وأن نجماً انفجر ، فتكونت منه مجموعتنا الشمسية ، وأن أرضنا انفصلت عن الشمس مع أخواتها الكواكب ، وأخذت تدور حولها مع هذه الكواكب .. وهكذا (١) .

وهذا الذى قيل فى خلق الأرض والسماء ، قيل فى خلق الإنسان ، متطوراً عن قرد .. وبادئاً من حيوان ذى خلية واحدة ! (٢) .

وهذا القول مخالف لما يقول به الإسلام .

وأكثر من ذلك أن (العلماء) القائلين بذلك — مخالفين للإسلام — يحددون عمر الكون ، وعمر الأرض ، وعمر الإنسان عليها و .. (٣) .

ولكنهم بحمد الله يختلفون ، واختلافاتهم لا تقع فى سنين معدودات . . . عشرات أو مئات .. أو حتى آلاف السنين ، بل فى ملايين السنين !! (٤) .

والعلم عندما يخوض فى هذه المسائل ، التى تتعلق بأصل الكون ، وأصل الأرض ، وأصل الإنسان ، وغيرها من الأصول ، إنما يخرج على المنهج العلمى ذاته ، لأن المنهج العلمى إنما يهتم بما هو كائن أمامه ، لا بما لم يره . وإذا توفر لديه علم على ما لم يره ، فإن هذا العلم لا يتوفر لديه إلا بما هو قائم أمامه ، وحينئذ يقول : يظن ، ويحتمل ، وغيرها من الألفاظ التى تدل على الشك ، لا على اليقين .

يقول الشهيد سيد قطب :

---

(١) ارجع الى ص ٢١ — ٢٥ من الكتاب .

(٢) ارجع الى ص ٤٨ ، ٤٩ من الكتاب .

(٣) ارجع الى ص ٤٦ — ٤٨ من الكتاب .

(٤) ارجع الى ص ٤٨ من الكتاب .

« إن تحرر العقل لا يستدعى حقاً التهجم والتوقع والشطط ، ولنجرد القرآن من كل قداسة دينية ، ثم لننظر إليه كمصدر تاريخى بحت . فماذا نجد ؟ نجد أننا لا نملك كتاباً آخر ، ولا أثراً تاريخياً آخر ، فى تاريخ البشرية كلها ، توافرت له أسباب التحقيق العلمى البحتة ، كما توافرت لهذا الكتاب .

وبديهى أننا لا نملك فى إثبات صحة الحوادث التى تحدث بها القرآن ، أو عدم صحتها ، إلا وسيلتين اثنتين ، ولكن واحدة منهما ليست قطعية ، وليس لها من قوة الثبوت ما للقرآن . إحدى الوسيلتين اللتين فى أيدينا : الأسانيد التاريخية الأخرى . فإذا نحن جردنا القرآن من قداسته — كما قلت — فإنه ككتاب تاريخى ، يكون أقوى إسناداً من الوجهة العلمية البحتة ، من كل مرجع تاريخى آخر فى الوجود » .

« ومثل هذا التحقيق العلمى لم يتهيأ لكتاب آخر ، لا من الكتب المقدسة ، ولا من الكتب التاريخية ، ولا من الآثار التاريخية أيضاً ، فالكتب المقدسة الأخرى ، قد انقضت فترات طويلة بين حياة أصحابها وعصر تدوينها ، ولم ترو بالإسناد الذى روى به القرآن . والكتب التاريخية ، والآثار التاريخية ، لا ترتفع فوق مستوى الشبهات . وليست هناك حادثة تاريخية واحدة فى تاريخ البشرية ، تعد يقينية ، يقيناً علمياً خالصاً .

إذن لا تجوز محاكمة القرآن ، ككتاب تاريخى بحت — إلى أى كتاب تاريخى ، ليس له من قوة الثبوت ما لكتاب القرآن .

والوسيلة الأخرى التى بين أيدينا هى العقل . ولست أتردد فى التصريح ، بأن احترام العقل البشرى ذاته ، يوجب عليه أن يفسح للمجهول مجاله ، وأن يحسب له حسابه ، لا عن طريق الإيمان الدينى ، ولكن عن طريق التفكير

العلمى . وإن العقل البشرى ليسقط احترامه حين يدعى انه يعلم كل شيء ، وهو لا يعلم نفسه ، ولا يدرى كيف يدرك المدركات !

وليس فى هذا إنكار للفكر الإنسانى وحريته ، ولكن فيه احتراماً لهذا الفكر ، بمعرفة قدره ومجاله »[١] .

إن العلماء المحدثين ، حين يتجاوزون حدود المنهج العلمى ، يشطون ، وحين يشطون ويبعدون عن الحقيقة ، يبعدون عن القرآن — وهو الحقيقة المطلقة .

وقد حسم القرآن الكريم هذه القضية ، فى ألفاظ قليلة ، ولكنها تجمع بين دفتيها — شأن القرآن فى كل قضية — سيلا من المعانى والأفكار ، لا ينقطع :

— « وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس، كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ، وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا . ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً »[٢] .

وهو يستخدم فى دمغه لكافرى الأمس واليوم ، نفس المنهج العلمى .. الذى يجب أن يتبعوه، ليصلوا إلى الحقيقة ، منهج (ما أشهدتهم خلق...) .

إنه قرآن ما أعظمه ، وكلام ما أحلاه وأروعه — ولكن الكافرين بآيات الله يجحدون .

---

(١) سيد قطب ، التصوير الفنى فى القرآن — دار الشروق ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) قرآن كريم : الكهف — ١٨ : ٥٠ ، ٥١ .

إن الخلاف بين القرآن الكريم وحقائقه الكونية، وبين العلم الحديث، خلاف يشرف به القرآن ، ولا يقلل من قدره ، بأى مقياس من المقاييس، يمكن أن يقاس به التشريف ، لأن فساد منهج العلم ، فيما يتوصل إليه من حقائق، يخالف بها القرآن ، يقلل من قيمة الحقائق التى يقول بها العلم ، لا من قيمة الحقائق التى يقول بها القرآن .

وخلافات أخرى :

وبنفس هذا المنهج الفاسد، يقحم العلم الحديث نفسه فى مسائل، يختلف فيها مع الإسلام ، فيكون — فى نظرى — هو الخاسر .

إن العلم الحديث ينكر الحياة بعد الموت (١) ، وينكر وجود الله ، وينكر وجود الملائكة، وينكر وجود عالم الجن والشياطين ، وغيره وغيره من الأمور التى لا يراها الإنسان بعينه ، ولا يسمعها بأذنه ، ولا يستطيع أن يتصل بها بأدواته العلمية الحديثة .. المتقدمة .

ومن إعجاز القرآن — كما سبق — « أنه تكلم فى لغة العلم قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات ، لم تستوحشها أذواق الأقدمين ، ولا معارفهم ، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث » (٢) .

وقد سبق القرآن العلم الحديث، بقوله بوحدة السماء والأرض ، قبل أن ينفصلا ، وسبقه بقوله : إن الإنسان (خلق من ماء دافق ، يخرج من بين

---

(١) هناك علماء محدثون يرون امكانية ذلك ، ولنا عود الى هذا الموضوع فى كتاب مستقل ، يصدر ضمن هذه السلسلة باذن الله ، وسنشير اليه فى كتابنا القادم عن (الانسان) باذن الله .

(٢) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ، مدخل علمى الى الايمان — ترجمة ظفر الاسلام خان — مراجعة وتقديم : دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الاسلامى — ١٩٧٤ ، ص ١٢٤ .

الصلب والترائب)(١) ، وسبقه بقوله إن السماء سقف محفوظ ، يقى الذين يعيشون على الأرض شر هجمات الشهب والنيازك وغيرها وغيرها ، وسبقه بالقول بوحدة الكون .. وسبقه وسبقه .. ولم يستطع العلم الحديث أن يصل إلى ما وصل إليه من حقائق كونية، قال بهاالقرآن الكريم ، إلا بعد أن توفرت له أدوات بحثه فقط .

وقبلها ، كان العلم عاجزاً ، والعلماء عاجزين ، يعلنون الحرب على من يقول، بما يقولون هم به اليوم .

ولم تكن الكنيسة وحدها ، هى التى أعلنت الحرب على كوبرنيكس وجاليليو وغيرهما ، وإنما كان العلم هو الذى أعلن الحرب عليهما قبلها .

فمعلومات الكنيسة عن السماء والأرض والشمس ، كانت تقف عند حد ما وصل إليهامن أفلاطون وأرسطو، قبل ميلاد السيد المسيح ، ولم يكن أى منهما قد ذكر شيئاً عن دوران الأرض حول الشمس ، وعن الجاذبية الأرضية وعن غيرها ، ومن ثم كانا يستحقان العقاب .

وكان العلم، هو الذى حكم على العالمين، اللذين غيرا خريطة المعرفة الفلكية والطبيعية ، وكان دور الكنيسة هو دور المنفذ فقط .

ويذكر هدسون، نقلا عن لويرز، أن « أحد طلبة العصور الوسطى كان قد اكتشف نقطاً فوق الشمس ، ونقل اكتشافه هذا إلى قسيس معروف، فرد عليه القسيس :

(يا بنى . لقد قرأت أرسطو عدة مرات ، وأؤكد لك أن شيئاً من

---

(١) قرآن كريم : الطارق — ٨٦ : ٦ ، ٧ .

ذلك لم يرد على لسانه . اذهب واسترح ، وتأكد أن النقط التى رأيتها ، إنما هى موجودة فى عينيك أنت ، لا فى الشمس) »(١) .

فالعلم الذى كان يقول ، ولم تكن الكنيسة .. وإنما كانت الكنيسة بمثابة السلطة التنفيذية للعلم .

وقدسبق لويس باستير ، وروبرت كوخ ، إلى اكتشاف عالم الميكروب الضخم فى القرن التاسع عشر ، عالم آخر ، هو ليفنهوك ، فى القرن السابع عشر ، حينما « وضع بالصدفة قطرة من ماء المطر تحت مجهره ، وكانت مفاجأة غريبة ، لم يكن يتوقعها ، إذ وجد قطرة الماء تزخر (بوحوش دقيقة مسحورة) ، (كما عبر عنها) ، وكتب فى مذكراته (إنها تتحرك كالشياطين ، ثم تتوقف عن الحركة فجأة ، ثم تقف وكأن على رءوسها الطير ، ثم (تتشقلب) ، أو تدور حول نفسها بسرعة ، وكأنها نحلة ، كالتى يلعب بها الأولاد .. والغريب أن الحيز الذى تحتله هذه المخلوقات الغريبة ، لا يزيد على حبة دقيقة من الرمل ، رغم تكبير العدسات لها) »(٢) .

ولو قال ليفنهوك ذلك قبل ثورة الإصلاح الدينى ، لحكمت عليه محاكم التفتيش بالموت حرقاً ، ولكنه كان سعيد الحظ ، إذ تأخر ميلاده قرنين أو ثلاثة .

ولو قال أحد الناس منذ مائة سنة : إن سلكا من المعدن ، يمكن أن يحمل صعقة كهربائية تؤدى إلى الموت ، كما يحمل طاقة يمكن أن تضىء المصابيح وتدير الآلات ، لسخر الناس منه .

---

(1) HUDSON, WILLIAM HENRY; Op - Cit., p. 6, Quoted : Lowers, History of Philosophy, ii 95, 96.

(٢) دكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة (مرجع سابق) ، ص ٤ ، ٥ .

ولو قال أحد الناس منذ خمسين سنة مثلا : إن الهواء يمكن أن ينقل الكلام عشرات الكيلو مترات ، كما يفعل اللاسلكي اليوم ، وأن متحدثاً في غرفة مغلقة ، يمكن أن يتحدث ، فيسمعه الناس في أجزاء عديدة من العالم .. لسخروا منه أيضاً .

ولكن هذا الذي كان يدعو إلى السخرية ، أو إلى الموت ، يوماً .. صار شيئاً عادياً بعد ذلك ، عندما تمكن العلم ، بأدواته ومعداته ، من أن يرى الميكروب ، ويكتشف عالمه الرهيب العجيب ، وعندما تمكن من أن يرى الكهرباء تسير بالفعل في سلك من المعدن ، وتصنع الأعاجيب ، وعندما تمكن من أن يكتشف أن في الهواء الجوي موجات كهربائية ، يمكن أن تحمل الكلام بين نقطتين محددتين ، أو تحمله ليلتقطه أي إنسان يشاء .

ثم تطور الأمر ، فنقلت الصور التليفزيونية عبر الهواء الجوي .. في مساحات محدودة أول الأمر ، ثم عبر المحيطات الآن ، بالاستعانة بالأقمار الصناعية .

فالمسألة إذن ، ليست مسألة وجود الشيء أو عدم وجوده ، وإنما هي مسألة قدرة العلم ، بما يتوفر له من أدوات ومعدات ، على أن يرى ، أو عجزه عن الرؤية .

وعجز العلم الحديث عن أن يرى الله ، لا يدل على عدم وجوده .

وعجزه — بأدواته الحالية — عن أن يرى الملائكة ، لا يدل على عدم وجود الملائكة .

وعجزه عن أن يرى عالم الشياطين .. والجن .. لا يدل على عدم وجود هذين العالمين .

وإنما هو يدل على عجز العلم وكفى .

ولكن العلماء المحدثين ، الذين يدعون أنهم يعرفون كل شيء ، لا يعترفون بعجزهم هذا ، وإنما يقولون بأن هذه العوالم غير موجودة .

تماماً كما كان عالم الميكروبات من قبل غير موجود ، وكما كان عالم الالكترونات،وعالم الذرة وغيرها وغيرها .

وقول العلماء بعدم وجود حياة بعد الموت ، أو عدم وجود ملائكة ، أو عدم وجود شياطين ، قول لا يقلل من شأن الإسلام ، الذى قال بذلك كله ، وإنما هو يقلل من شأن العلماء القائلين به .

وهو يقلل من شأنهم ، لأنهم يجزمون بأمور ، لم تتحقق لهم (وسائل) التأكد من وجودها، أو عدم وجودها.

وهو يقلل من شأنهم ، لأنهم يتبعون منهجاً غير علمى ، يقولون به حقائق ، يدعون أنها علمية .

وهو لا يقلل من شأن الإسلام ، لأنه يعرف ما لا يعرفون .

ولدى الإسلام من الأدلة على صدق ما يقول به ، أكثر مما يتصورون .

فلقد نزل الملائكة من السماء ، وحاربوا مع المسلمين فى غزوة بدر ، ولولا ذلك لتغير التاريخ الإنسانى كله ، وسار مساراً غير المسار :

— « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » (١) .

— « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا »

---

(١) قرآن كريم : الأنفال — ٨ : ٩ .

سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان »(١) .

وقد رأى المسلمون الملائكة رأى العين ، فى تلك الغزوة ،كما تقول كتب التاريخ .

ورأى المسلمون الملائكة رأى العين، فيما تقول كتب التاريخ،فى حروب الصليبيين ، تحت قيادة صلاح الدين .

ورأى بعض المصريين الملائكة رأى العين،فى حرب رمضان ١٩٧٣ — كما يقال .

ولو لم يكن الملائكة موجودين ، فكيف انتصر الجيش القليل العدد ، الضعيف المنهك،الجائع ، قليل السلاح،أمام عدو كثير العدد، كثير السلاح، قوى هادئ مستريح — فى بدر ؟

سيقولون : الله .

إذن فقد وصلنا إلى حقيقة أخرى، ينكرها الملحدون ومدعو العلم — وهى حقيقة وجود الله .

فهم ينكرون وجود الله إنكارهم لوجود الملائكة .

إن المنهج العلمى، الذى يجب أن يلتزمه العلماء، يفرض عدم الجزم بعدم وجود شىء ، إلا إذا ثبت — بالتأكيد القاطع — عدم وجوده .

وما دامت أدوات العلماء الحالية ،عاجزة عن الاقتراب من هذه الحقائق الكونية الكبرى ، التى قال بها الإسلام — فإننا هنا — احتراماً لعقولنا — يجب ألا نشك فى هذه الحقائق ، كما قال بها القرآن الكريم ، لمجرد وهم ، يغطى به بعض العاجزين عجزهم ، ولا يقدمون به حقيقة تقوم على أساس .

---

(١) قرآن كريم : الأنفال — ٨ : ١٢ .

الفصل الخامس

المسلمون . . والكون

تقديم :

وقد يكون غريباً ، أن نفرد (للمسلمين) فصلا مستقلا ، بعد أن أفردنا (للإسلام) فصلا ، وكأنما الإسلام شيء ، والمسلمون شيء آخر .

وهى حقيقة أردنا إليها وقصدناها ، ولم نسق إليها .

فالمسلمون اليوم ، ومنذ القرن الحادى عشر أو الثانى عشر الميلادى ، غيرهم فى القرون الهجرية الستة الأولى .

كانوا فى القرون الهجرية الستة الأولى، أقرب إلى الإسلام ، وهم اليوم أبعد عنه .

• والنتيجة أنهم — بالأمس — كانوا عوناً للإسـلام ، ولكنهم اليوم عبء عليه .

وهذا ما سوف نراه فى هذا الفصل ، ونرى أثره على علاقة المسلمين بالكون .. بالأمس واليوم .

المسلمون بالأمس :

وعهد المسلمين بالأمس ، يبدأ مع الأمر الذى وجهته العناية الإلهية إلى الرسول ، بأن يدعو الناس إلى الله ، بمجرد نزول الوحى عليه . وينتهى هذا العهد بسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وكان هذا العهد عهد قوة وازدهار، لأنه — فى عمومه — كان عصر إيمان .

وكان مصدر هذا الإيمان فى مستهل الدعوة ، هو شخصية الداعية نفسه ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، الذى وصفته عائشة — حين سئلت عن خلقه — بأنه (كان خلقه القرآن) ، فقد أحاط به « نخبة من كبار الرجال ، مختلفون فى الأعمار والأقدار ، مختلفون فى البيئات والأحساب، مختلفون فى الأمزجة والأخلاق ، مختلفون فى ملكات العقول وضروب الكفايات ، مختلفون فى فهم الدين وبواعث الإسلام » ، ولكنهم «يلتقون أول الأمر وآخره ، فى ذلك الينبوع الفياض ،من تلك الفطرة العلوية ، التى فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال ، بل لقيادة القواد ، الذين يروضون الأمم والرجال »(١) ، كما يلتقون فى أنهم « نخبة من ذوى الأقدار ، تجمع بين عظمة الثروة ، وعظمة الرأى ، وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن فى عظمته، تقوم عليه دولة،وتنهض به أمة ، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة ، وسائر الصحابة الأولين »(٢) ، وكل منهم — على عظمته — لم يكن « لينظر إلى (النبى) طوال أيام صحبته ، إلا كنظرة التلميذ المعجب بأستاذه »(٣) .

دعوة عظيمة ، لداعية عظيم ، فهل يستجيب لها إلا العظماء ؟

ويصف العلامة أبو الحسن الندوى ، ما أحدثه هذا الداعية العظيم ، الذى (كان خلقه القرآن) ، والذى رفض المال والسيادة فى سبيل دعوته

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية خالد — دار الهلال ، ص ٤٧ .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد — دار الكتب الحديثة — القاهرة — ١٩٦٦ ، ص ٩٥ .

(٣) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام (مرجع سابق) ، ص ١٤٢ .

— ورجاله القليلون المستضعفون المضطهدون ، الذين آمنوا به وأيدوه وافتدوه — بأنه كان (انقلاباً) فى حياة الإنسانية كلها ، وقد « كان تأثير هذا الانقلاب عظيماً جليلا ، فكان الطريق إلى الله من قبل فى دولة الجاهلية وغربة الإسلام ، شاقاً عسيراً ، محفوفاً بالأخطار ، فأصبح الآن سهلا يسيراً ، آمناً مسلوكا ، وكان يصعب على الإنسان فى الوسط الجاهلى أن يطيع الله ، فصعب عليه فى الوسط الإسلامى أن يعصى الله » .

و « صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام ، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات فى فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترق وتخشع ، وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس ، وتتغلغل فى الأحشاء ، وبدأت قيمة الأشياء تتغير فى عيون الناس ، والموازين القديمة تتحول ، وتخلفها الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية ، كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً ، كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه ، والظهور بمظاهره »(١) .

وتوقع كثير من أعداء الله وأعداء الحق ، من الفرس والروم ، وأصحاب المصالح المكتسبة ، أن (ينهار) الإسلام من داخله ، بعد أن فشل الكفار فى الإجهاز عليه ، بمجرد انتقال المصطفى إلى الملأ الأعلى .

تصوروا (الفراغ) الذى سيحدث بفقده ، سيقضى على الإسلام .

وأخطأوا فيما تصوروا ، لأن عبقرية الدعوة الإسلامية تكمن فى أنها تعتمد على الرجال — كل الرجال ، ولا تعتمد على فرد واحد ، مهما كان عظيماً ، لينهار النظام بفقده .

---

(١) أبو الحسن الندوى (مرجع سابق) ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

وبقدر عظمة النظام ، تكون عظمة من يعتمد عليهم من رجال ، وبقدر تفاهة النظام، تكون تفاهة المحيطين به ، والملتفين حوله .. لتسلط الأضواء على واحد فقط يقوده .

وقد كان النظام الإسلامى — كما سبق — عظيماً ، بقدر ما خلق من رجال عظماء ، استند إليهم الرسول الكريم فى حياته ، واعتمدت عليهم حركته فى غيابه .

ومن ثم أخطأ أعداء الإسلام ، حين تصوروا إمكانية الإجهاز على الإسلام ، بعد موت رسوله .

وثبت خطؤهم فى حركة التاريخ الإسلامى ، بعد موت الرسول .

كان مقدراً أن تجهز الردة على الإسلام ، فإذا بالإسلام يخرج من الردة أقوى — وكانت الردة والقضاء عليها فى عهد الخليفة الأول أبى بكر.

ثم خطط للقضاء عليه من خارج الحدود ، فإذا بالإسلام يخرج من هذه المحنة أقوى .. فانتهت باستيلاء الإسلام على بلاد الامبراطوريتين ، وإزاحتهما من الخريطة السياسية .. وكان ذلك فى عهد الخليفة الثانى عمر . وكانت نصرة الإسلام على الامبراطوريتين « نصرة عقيدة لا مراء » — « عقيدة منشئة ، يذود عنها حماة قادرون »(١) .

وظلت المحاولات للإجهاز على الإسلام ، وكانت كل محاولة تأتى بنتيجة عكسية ، حتى اتسعت رقعة الإسلام ، فى آسيا وأفريقيا وأوربا .

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية خالد (مرجع سابق) ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

وكانت خلافة كل خليفة من خلفاء الإسلام ، إضافة إلى الإسلام ... من وجوه عديدة ، « فعصر أبى بكر ، كان هو العصر الذى نشأت فيه الدولة الإسلامية . وعصر عمر ، كان هو العصر الذى تم فيه إنشاؤها . وعصر عثمان ، كان هو العصر الذى تكون فيه المجتمع الإسلامى ، بعد نشأة الدولة الجديدة » . « أما عصر على ، فكان عصراً عجيباً ، بين ما تقدمه وجاء فى أعقابه »(١) .

وما قيل عن الخلفاء الراشدين الأربعة ، يمكن أن يقال عن عصور الإسلام المختلفة ، فى عهد القوة هذا — العصر الأموى ، والعصر العباسى الأول ، والعصر العباسى الثانى .

ولقد ظهرت فى هذه العهود سلبيات ، كما ظهرت إيجابيات .. وأى نظام لا يخلو من سلبيات ؟

ولكن السلبيات فى هذا العهد كانت على هامش من الحياة .. وكانت الإيجابيات هى القاعدة الشائعة ، وإلا لما حدث هذا التغير الجذرى فى الخريطة العقائدية والسياسية فى العالم كله .

وكانت السلبيات بفعل أفراد .. ماتت بموتهم .. أما الإيجابيات ، فكانت هى حركة الحياة اليومية فى الإسلام ، فى هذا العهد .

كان هذا العهد عهد إيمان ، فكان — نتيجة لذلك — عهد (انفتاح) على العلم .. وعلى الكون .

ولقد كان ممكناً أن ينهار النظام الإسلامى من الداخل ، بمجرد الفتح والتوسع ، فليس الفتح والتوسع دوماً لصالح النظام ، وإنما قد يؤديان إلى إجهاضه

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية الامام — رقم (١١٣) من سلسلة (اقرأ) — الطبعة الثالثة — دار المعارف بمصر ، ص ٣٢ .

فقد كان انتصار اسبرطة على أثينا قبل الميلاد بداية النهاية لاسبرطة، وزوال بلاد اليونان كلها، أمام الدولة الرومانية الناشئة وقتئذ.

وكان انتصار وتوسع ألمانيا النازية .. بداية النهاية لألمانيا وللنازية معاً .. فى منتصف القرن العشرين.

ولكن إيجابية الإيمان فى الإسلام، جعلت الفتح والتوسع الإسلاميين، نعمة على الإسلام وعلى العالم.

ذلك أن الفتح الإسلامى وجد « فى: سورية ومصر والعراق وإيران، حضارات ذات مكانة ومقام، لم تزل بعدفى نمو وازدهار تام »، و « كانت شروط الفتح الإسلامى تسمح ببقاء بذور تلك الحضارات، عند طوائف كثيرة من الأهالى، الذين واصلوا التمتع بعاداتهم وقوانينهم ولغاتهم »(١).

ومن ثم لم يكن ما وجده الفاتحون المسلمون صدمة لهم، وإنما استطاعوا — بإيمانهم الملهم — أن يستوعبوه، و « جرى الناس وراء عقولهم، واسترسلوا فى التساؤل، بعد أن كانوا فى حياة الرسول يسلمون بما يجىء به الوحى من نصوص، ويؤمنون به إيماناً قاطعاً » (٢).

وقد بدأت هذه (العلوم) الجديدة، تقحم نفسها على عاصمة الخلافة ذاتها

---

(١) الدوميلى: العلم عند العرب، وأثره فى تطور العلم العالمى — نقله الى العربية: الدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور محمد يوسف موسى — قام بمراجعته على الأصل الفرنسى: الدكتور حسين فوزى — جامعة الدول العربية — الادارة الثقافية — الطبعة الأولى — دار القلم — ١٩٦٢، ص ١٢٣.

(٢) الدكتور محمد بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع — الطبعة الثانية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٠، ص ١٣.

مبكراً ، فى عهد الخليفة الثانى عمر ، حيث بدأ الاحتكاك بالحضارات الأجنبية ، وكان للفلسفة اليونانية بريقها فى ذلك الوقت ، ولذلك أخذ على رضى الله عنه « يصرف جهوده فى المدينة ، لتوجيه نشاط العنصر الناشئ إلى الناحية العلمية ، فشرع مع ابن عمه ، عبد الله بن العباس ، فى إلقاء محاضرات أسبوعية ، فى المسجد الجامع ، فى الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه ، بينما تفرغ غيرهما إلى إلقاء محاضرات فى شئون أخرى . وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية ، التى ترعرعت وزهت بعد حين فى (بغداد) ، عاصمة العباسيين »(١) .

وكانت هذه الحركة العلمية فى أول أمرها بسيطة ، بسبب الانشغال بالفتوح ، وما أن جاء العصر الأموى ، وانتهت حركة الفتوح ، حتى « أخذ الخلفاء يلجون باب العلم ، كما ولجوا باب الفتوحات»(٢) .

وكانت العلوم التى ورثوها عن البلاد المفتوحة ، خير عون لهم فيما أرادوا ، كما كان العلماء من أبناء البلاد المفتوحة ، عوناً كبيراً لهم أيضاً .

بيد أن الخطوات العلمية فى أول أمرها كانت محدودة ، فلما جاء العصر العباسى ، وكانت التقاليد العلمية قد استقرت ، بدأت هذه الخطوات العلمية — مع العصر العباسى — تتسع كثيراً . وقد بلغت الحركة العلمية ذروتها — كما هو معروف — فى عصر المأمون العباسى .

ولم تكن الحركة العلمية العربية حركة دينية وكفى ، بل كانت حركة دينية وتاريخية وأدبية ، وحركة طبيعية وفلسفية أيضاً ، بحيث « لا نستطيع

---

(١) عمر أبو النصر : على وعائشة — دار احياء الكتب العربية — القاهرة — ١٩٤٧ ، ص ٦١ .

(٢) بطرس البستانى : كتاب دائرة المعارف — المجلد الحادى عشر — مطبعة الهلال بمصر — ١٩٠٠ ، ص ٢١١ .

أن نتصور المدنية العربية من غير العلوم الطبيعية »(١) .

ويلاحظ ميروف Meyerhof أن « (العلوم ، فضلا عن الطب ، كانت تدرس كثيراً فى المساجد) ، وأن (كل مسجد كبير ، كانت به ، ولا تزال ، مكتبة كبيرة ، لا تحتوى على العلوم الدينية فقط ، بل وبها مؤلفات فلسفية وعلمية أيضاً) » (٢) ، كما يلاحظ جب Gibb وكرامرز Kramers أنه حتى وقت متأخر ، « كان الطب يدرس فى الجامع الأزهر ، كما كان يدرس فى مدارس خاصة » (٣) .

وهكذا « ظل الإسلام خمسة قرون : من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ ، يتزعم العالم كله فى القوة والنظام وبسطة الملك ، وفى ارتفاع مستوى الحياة والأدب والبحث العلمى والطب والفلسفة . ولم يكن أثر الإسلام على العالم المسيحى مجرد أثر سياسى ، بل كان أثراً بالغاً مختلف الأنواع ، فقد تلقت من بلاد الإسلام الطعام والشراب والعقاقير والأدوية والأسلحة وشارات الدروع ونقوشها ، والروائع الفنية ، والتحف والمصنوعات والسلع التجارية ، وكثيراً من الصناعات والتشريعات والأساليب البحرية » (٤) .

---

(١) الدكتور أبو الفتوح رضوان : « أمجادنا التاريخية ، ومكانتها فى مناهجنا المدرسية » — الرائد — عدد ممتاز ، عن مؤتمر المعلمين العرب — الإسكندرية — ١٩٥٦ ، ص ١٣١ .

(2) **RADWAN, ABU AL-FUTOUH AHMAD : Old and New Forces in Egyptian Education, Proposals for the Re-Construction of the Program of Egyption Education, in the Light of Recent Cultural Trends; Bureau of Publications, Teachers College, Columbia University, New-York, 1951, p. 42.**

(3) **GIBB, H. A. R. and KRAMERS, J. H. : Shorter Encyclopaedia of Islam; Leiden, E. J. Brill, 1953, p. 306.**

(٤) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى (مرجع سابق) ، ص ١٤ ، ١٥ .

ومن المسلمين ، انتقلت الحضارة الإسلامية إلى الغرب ، عن طريق الأندلس وصقلية، وغيرهما من (معابر الحضارة) التى تحدثنا عنها من قبل(١)، فأحدثت فيه ما أحدثت من تغيرات عميقة — دينية وسياسية واقتصادية ، وعلمية أيضاً .

المسلمون والكون أمس :

كان المسلمون فى هذا العهد الأول، متصالحين على الإسلام ، فكانوا متصالحين على الكون أيضاً .

وأمارة هذا التصالح ، تلك الاستجابة السريعة للعلوم والحضارات التى ورثها الإسلام عن البلاد المفتوحة ، فلم يقل المسلمون إن أهلها وثنيون ، أو إنها علوم وثنية ، بل رأوها علوماً وكفى ، وترجموها وتدارسوها ، ثم نهضوا بها ، بعد أن صبغوها صبغة إسلامية خالصة .

وكانت الاستجابة لهذه العلوم مبكرة — فى عهد عمر بن الخطاب ، واستمرت طوال هذا العهد الأول ، وكانت تزيد يوماً بعد يوم .

ولم يكن لدى العرب ، « عندما اندفعوا من شبه جزيرتهم ، فى القرن السابع للميلاد ، ليضعوا أساس دولتهم العظيمة ، لم يكن لديهم عندئذ تراث حضارى شامخ ، ينافسون به الشعوب الأخرى ، ذات الحضارات القديمة » .

ومع ذلك ، فقد كان لدى العرب عندئذ ما هو أهم ، وهو القدرة على التعلم السريع ، والإفادة من الغير، وتشرب الاتجاهات النافعة فى الحضارات،

---

(١) ارجع الى ص ٨١ — ٨٣ من الكتاب .

التى قدر لهم أن يلتقوا بها ، ويصادفوها فى طريق توسعهم» (١) .

وقد خلق هذه (القابلية الحضارية) ـ بطبيعة الحال ـ فيهم، إسلامهم، وحسن فهمهم لهذا الإسلام .

وكان المسلمون هم الذين وضعوا أساس (المنهج التجريبى) ، ولم يكونوا قد أخذوا هذا المنهج عن الإغريق ، لأن « العبقرية الإغريقية كانت عبقرية قياسية ، أكثر مما كانت استقرائية » (٢) .

وقد ابتدع المسلمون هذا المنهج ابتداعاً ، متأثرين فيه بطبيعة الإسلام، وبالأوامر القرآنية المتلاحقة بالتفكر والتأمل والتدبر، فى السماء والأرض، وفى النفس ، وبترجمة الفكر النظرى ، إلى واقع عملى ، بدلا من التحليق فى آفاق من الخيال . « فالفكر العربى فى جوهره كان فكراً تجريبياً ، تجاوز الحدود الصورية لمنطق أرسطو ، واتخذ الملاحظة والتجربة مصدراً لعلمه . وكان هذا الفكر التجريبي يربط بين التأمل النظرى ، والممارسة العملية ، ويتجه إلى التحديد الكمى » (٣) .

وقد رأينا من قبل ، أن روجر بيكون Roger Bacon ، قد نقل هذا المنهج إلى أوربا ، متأثراً فيه بالحسن بن الهيثم، وبالعلماء العرب (٤) ، فكان سبباً فى نقلة أوربا الكبرى إلى الحضارة الحديثة .

ومعروف أن المنهج التجريبى ، هو منهج العلوم الطبيعية وحدها ، من

---

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق) ، ص ١٥ .
(٢) برتراند رسل (مرجع سابق) ، ص ٦ .
(٣) الدكتور عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى — الطبعة الثانية — مطبعة لجنة البيان العربى — ١٩٦٦ ، ص ٦٣ .
(٤) ارجع الى ص ٨٣ من الكتاب .

كيمياء وحيوان ونبات وطبيعة وطب وصيدلة وزراعة وغيرها ، وأن هذا المنهج — نتيجة لذلك — هو نتيجة من نتائج (الانفتاح) العقلى الواسع على الكون ، دراسة له ، واستفادة منه .

ومعروف — أيضاً — أن هذا المنهج التجريبى ، هو الذى يقف وراء النهضة الكبرى، الحديثة، وأنه هو الذى وقف من قبل وراء النهضة الإسلامية الكبرى ، فى العصور الوسطى .

المسلمون اليــوم :

يبدأ التاريخ الإسلامى الحديث ، مختلفاً عن التاريخ الإسلامى فى عهد ازدهاره الأول ، رسمياً بسقوط بغداد ، وإن كان يبدأ عملياً قبل ذلك بسنوات .

فقد قامت الحضارة الإسلامية الأولى ، المستوحاة من روح الإسلام ، على أساس إقامة (توازن) معقول بين (حرية) الفرد ، (ومصلحة) الجماعة ، دون ما تفريط فى واحدة منهما .

وقد بدأ الأتراك (يتسلطون) على الخلافة العباسية، بعد الخليفة المعتصم ، وبلغ تسلطهم عليهـا ، إلى حد قتلهم للخليفة المتوكل، الذى كان قتله « مصرع الخلافة ، ومجد الأتراك ، فكان الخليفة بعده خاتماً فى إصبعهم ، أو أقل من ذلك » (١) .

ومع قتل الخلافة ، والتسلط عليها ، صودرت حريات الأفراد .

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاســلام ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٤٦ ، ص ١١ .

وكان ذلك بداية انتكاسات عظمى ، فى التاريخ الإسلامى :

— ضعفت الخلافة فى بغداد ، فبدأت الولايات المختلفة تستقل عنها ، واحدة بعد أخرى .

— ثم كانت الغزوات التتارية من الشرق ، التى دمرت بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وكانت الحملات الصليبية من الغرب ، التى قضت على المسلمين فى الأندلس ، واحتلت فلسطين قرابة مائة سنة .

— وكان الاستعمار الحديث ، بكل حقد الغرب ـ منذ الحروب الصليبية ـ على الإسلام والمسلمين .

— ثم كانت المظالم تحت حكم المماليك .

— وكان التسلط العثمانى على العالم الإسلامى ، وعزله عن العالم الخارجى ، وعزله عن ماضيه الحضارى أيضاً .

— ثم كان الحكم الوطنى بعد الاستقلال ، وكان فى كثير من جوانبه — كما سنرى — أسوأ من أى حكم سبقه .

ونتيجة لذلك كله ، صار المسلمون اليوم غير مسلمين ، « كثرتهم الكاثرة يجهلون الحقيقة التشريعية للإسلام الصحيح ، ويجهلون مبادئه الفكرية ، وأصوله العقيدية ، وآدابه الخلقية ، ويعيشون فى أمشاج من الأساطير والخيالات ، صنعوها لأنفسهم بجهالتهم ، أو صنعت لهم ، لتباعد بينهم وبين الإسلام الصحيح » (١) .

صار المسلمون — بعد هذا التاريخ الطويل — « فى حالة ردة » ، « فقد أصبح دولاب الحياة كله ، يدور فى غفلة عن الله ، وعن دين الله ، وأحكامه وشريعته » .

---

(١) محمد الصادق عرجون : الموسوعة ، فى سماحة الاسلام — المجلد الأول — مؤسسة سجل العرب — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ١٦ .

وأصبح الناس أجزاء فيه ، يتحركون بحركته ، بل يساعدونه على الدوران والاستمرار، شعروا أو لم يشعروا ، ويزداد البعد عن الإسلام، يوما بعد يوم » (١) .

ولهذا البعد عن الإسلام-فى نظر الباحثين-أسباب متعددة ، منها انصراف « بعض الحكام المسلمين إلى شؤون الدنيا ، وتغليب القوة الظالمة والسياسة الخرقاء على الحق ، الأمر الذى أدى إلى إهمال تعاليم الإسلام ، وإخضاع رجال الفكر وعلماء الدين إلى توجيهات السلطان ، ومنعهم عن أداء واجبهم الدينى ، فى تثقيف المسلمين بحقائق دينهم » (٢) ، ومنها « استيراد المبادئ والخطط ، واستعارة النظم والشرائع ، من خلف السهوب ، ومن وراء البحار » ، دون أن « نراجع رصيدنا الروحى وتراثنا الفكرى » (٣) .

ويرى الشهيد عبد القادر عودة، أن معظم المسلمين أميون ، أو مثقفون «ثقافة بسيطة ، لا تؤهلهم لأن يستقلوا بفهم ما يعرض عليهم، والحكم عليه حكما صحيحاً ، وهؤلاء يجهلون الشريعة الإسلامية جهلا تاماً، إلا معلومات سطحية عن العبادات . وأكثرهم يؤدون العبادات تأدية آلية ، مقلدين فى ذلك آباءهم وإخوانهم ومشايخهم ، ويندر أن تجد فيهم من يعتمد فى تأدية عباداته . على دراسته ومعلوماته الشخصية » (٤) .

---

(١) سعيد حوى : جند الله ، ثقافة وأخلاقا — من (دراسات منهجية هادفة فى البناء) — الطبعة الثانية ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) الدكتور محمد فاضل الجمالى : نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الاسلامى — الدار التونسية للنشر — ١٩٧٢ ، ص ٣٢ .

(٣) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام (مرجع سابق) ، ص ٥ .

(٤) الشهيد عبد القادر عودة : الاسلام ، بين جهل أبنائه ، وعجز علمائه — المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م ، ص ٣٧ .

ويرى أن القلة القليلة الباقية من المسلمين (٢٠٪ منهم)، مثقفون ثقافة أوربية ، « يجهلون الإسلام ، والشريعة الإسلامية » ، ولكنهم « هم الذين يسيطرون على الأمة الإسلامية ، ويوجهونها فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهم الذين يمثلون الإسلام والأمم الإسلامية فى المجامع الدولية » .. « وأغلبهم على جهلهم بالشريعة الإسلامية متدينون ، يؤمنون إيماناً عميقاً ، ويؤدون عبادتهم بقدر ما يعلمون » . ولهم « ادعاءات غريبة عن الشريعة ، بل ادعاءات مضحكة ، فبعضهم يدعون أن الاسلام ، لا علاقة له بالحكم والدولة » (١) .

ويرى أن الحكومات الإسلامية « خرجت عن الإسلام ، فى الحكم والسياسة والإدارة ، وخرجت على مبادئ الإسلام » (٢) ، وأن « علماء الإسلام أغمضوا أعينهم ، وأطبقوا أفواههم ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وناموا عن الإسلام ، ولما يستيقظوا من عدة قرون ، فنام وراءهم المسلمون » .

« لقد ارتكب الحكام المظالم ، واستحلوا المحارم ، وأراقوا الدماء ، وانتهكوا الأعراض ، وأفسدوا فى الأرض ، وتعدوا حدود الله ، فما تحرك العلماء للمظالم ، ولا غضبوا من استحلال المحارم ، كأن الإسلام لا يطلب إليهم شيئاً ، ولا يفرض عليهم فرضاً ، ولا يوجب عليهم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » (٣) .

فالمسلمون اليوم — بأى مقياس — ولأسباب مختلفة — بعيدون عن الإسلام .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

ونتيجة لذلك، يرى الدارسون لأوضاع المسلمين اليوم، أن هناك صراعاً بين الدين والحياة، فى البلاد الإسلامية (١).

ونتيجة لبعد المسلمين عن الإسلام اليوم، يعيش المسلمون متخلفين ضعافاً، مضطهدين فى أرضهم — هان عليهم دينهم، فهانوا على أنفسهم، وهانوا على الناس.

وسبحان من يغير ولا يتغير.

وسبحان من لا يغير إلا بقانون:

— «الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شىء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة، الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من أمر الله، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال» (٢).

المسلمون والكون اليوم:

كانت علاقة المسلمين — فى العهد الأول — بالإسلام حسنة، فكانت علاقتهم بالكون من حولهم طيبة.. وكانوا متقدمين متحضرين.. أقوياء، تتطلع الدنيا كلها إليهم.. فى احترام.

وصارت علاقة المسلمين — اليوم — بالإسلام سيئة، فصارت علاقتهم

(1) ULICH, ROBERT : The Education of Nations, A Comparison in Historical Perspective; Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1961, p. 297.

(٢) قرآن كريم: الرعد — ١٣: ٨ — ١١.

بالكون من حولهم سيئة ، وصاروا متخلفين ضعفاء .. مستضعفين .. يتطلعون إلى الآخرين فى الشرق أو الغرب ، ولا ينظر غيرهم إليهم إلا فى احتقار .. أو فى إشفاق ، على أحسن الفروض .

وقد حبا الله بلاد المسلمين خيرات وفيرة ، يفيض بها باطن أرضها .. وسماؤها ، وموقعها .. ولكن المسلمين يضيعون هذه الميزات ، بتخلفهم ، وبفساد الإدارة فى بلادهم ، وبعدم استقرار الحكم فى هذه البلاد ، وبتطلعهم المستمر إلى البلاد المتقدمة .

ولذلك فقد « درج كثير من الباحثين والكتاب على النظر إلى العالم العربى (والإسلامى) فى مجموعه ، بوصفه من الأقاليم التى تنطبق عليها عبارة (التخلف الاقتصادى) ، بالقياس إلى مناطق أو بلاد أخرى فى العالم ، مثل الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية والاتحاد السوفيتى واليابان ، وإن كانت ظاهرة التخلف هذه ليست شاملة أو مطلقة » .

« والذين يصدرون مثل هذا الحكم ، يأخذون فى اعتبارهم طائفة من المؤشرات أو المعايير ، التى استقر الرأى على استخدامها ، لبيان مراحل التطور الاقتصادى . وفى مقدمة هذه المعايير العامة ، مبلغ استغلال الموارد الطبيعية والبشرية ، التى يضمها الإقليم أو البلد ، إذ لا مراء أن القصور أو التقصير فى هذه الناحية الأساسية ، يؤدى إلى اتساع نطاق البطالة ، من ظاهرة ومقنعة ، وهى ظاهرة يتفاقم خطرها ، كلما اشتد تخلف الموارد الطبيعية ، عن التكاثر الطبيعى فى عدد السكان ، فيهبط مستوى المعيشة ، بالنسبة إلى الغالبية الكبيرة منهم » . « ومن المعايير أيضاً ، مبلغ التأثر بنتائج الثورة التكنولوجية الحديثة ، واقتباس أساليبها ، فى الزراعة والتعدين والنقل والتصنيع ، ومستوى الإنتاجية » ، « وحجم الدخل الأهلى ، وبالتالى نصيب

الفرد منه ، ونسبة العدالة فى توزيع هذا الدخل بين الطبقات والفئات ، التى يتكون منها هذا المجتمع ، ودرجة التحرر الاقتصادى » (١) .

وهذا التخلف،الذى يعيش فيه العالم الإسلامى اليوم، يعود إلى قرون ستة خلت،منذ بدأ ذلك (التوازن) المطلوب، بين (الفرد) و (المجتمع) ، يختل ، حيث (تسلط) الأتراك على السلطة ، ثم تبعهم المماليك ، ثم تبعهم المستعمرون ، ثم تبعهم الحكام الذين يوصفون بالوطنيين .. ومنذ ذلك الوقت والمسلم مشغول بنفسه ، فضاعت حرية الفرد ، وضاعت مصلحة الجماعة أيضاً ، وكان ما يعيش فيه المسلمون اليوم من تخلف .. نتيجة لبعدهم عن دينهم الحنيف .

ومنذ ذلك الوقت أيضاً ، بدأ المسلمون يتخاصمون مع الكون، تخاصمهم مع الدين ، فأغلق باب البحث العلمى والفلسفى ، وصارت النظرة إلى العلوم كلها نظرة (سلفية) ، تقوم على تقديس ما قاله السابقون .. حتى ولو كان خطأ .

والغريب فى الأمر، أن البلاد الإسلامية، تفيض بالعلماء النابهين، فى مختلف مجالات الحياة ، ومنها العلوم الطبيعية ، ولكن هؤلاء العلماء ، لا يجدون فى بلادهم فرصاً مواتية ، لاستغلال إمكانياتهم ومواهبهم ، مما يدفع هذه العناصر الممتازة « إلى الهجرة إلى البلاد المتقدمة » (٢) .

وعلى أكتاف هؤلاء العلماء المسلمين النابهين ، تدور عجلة الحياة ، فى غرب أوربا والولايات المتحدة .

---

(١) دكتور راشد البراوى : اقتصاديات العالم العربى ، من الخليج الى المحيط ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٧٣ ، ص ٩ ، ١٠ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة ــ الطبعة الأولى ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٦ ، ص ١٢٥ .

وعلى أكتاف بعضهم ، يدور التقـــدم العلمى فى بعض المجالات الاستراتيجية ، كمجال الفضاء ، الذى برز فيه هناك الدكتور فاروق الباز — على سبيل المثال .

وكان على هؤلاء العلماء — ليعيشوا فى بلادهم الإسلامية — بعد إعدادهم العلمى فى الخارج ، أن يمن الله عليهم (بنعمة) الصمت أو النفاق ، التى (يمن) بها، على من يريدون أن يعيشوا فى سلام، فى عالمنا الإسلامى .

ولما كان العلماء بطبيعتهم طموحين ، لا يجيدون الصمت ولا النفاق — فقد (هرب) كثيرون منهم إلى الخارج .. حيث لا صمت ولا شلل للتفكير .

وصار هؤلاء العلماء .. المطرودون من بلادنا .. نعمة على البلاد التى هربوا إليها .. فى الوقت الذى تحتاج إليهم بلادهم فيه ... لولا فساد الحكم، وفساد الإدارة ، والتخلف ، وكلها نتائج مباشرة — أو غير مباشرة — لبعدنا عن إسلامنا الحنيف .

وبعـــد :

فلعل العلاقة تتضح، بين تصالح المسلم على دينه وعقيدته ، وتصالحه على الكون من حوله ، كما تتضح العلاقة بين تخاصم المسلم مع دينه وعقيدته ، وتخاصمه مع الكون من حوله .

ولعل العلاقة تتضح — كذلك — بين ما تؤدى إليه المصالحة بين المسلم ودينه، من قوة وازدهار وحضارة ، وما تؤدى إليه الخصومة بين المسلم ودينه، من تخلف وفقر وذلة وهوان .

وليس هذا بالأمر الغريب على دين كالإسلام ، يقيم عقيدته على العقل والمنطق ، ويجعل من الكون المحيط بالإنسان ، مدخله إلى العقيدة الصحيحة ، وبداية طريقه إلى الله .

وليس هذا بالأمر الغريب على دين — كالإسلام — يعتبر الحياة الدنيا هى الطريق الوحيد إلى الآخرة ، ويدعو إلى العلم وإلى الغنى وإلى الاستمتاع بالحياة ، ويعتبر دفاع الإنسان عن ماله وحقه ، دفاعاً له عن دينه أيضاً ، يستحق — من أجله أن يكون — إن مات دونه — شهيداً .

وهى ميزة للإسلام ، ينفرد بها بين الأديان الكتابية .

وهو لا ينفرد بهذه الميزة لانحرافه عن خطها ، أو لانحرافها عن خطه ، فالأديان كلها من عند الله ، والمسلم لا يعد مسلماً إلا إذا اعترف بها جميعاً ، وآمن بها وبرسلها وكتبها ... وكل ما يتصل بها ، دون ما تفريق بين واحد منها ولا تمييز :

— « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير »(١) .

— « قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٨٥ .
(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٣٦ .

ـــ « قل: آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (١) .

ولكن فرق بين كتاب الإسلام ، الذى بقى كما هو لم يحرف ، « يقول الأستاذ (ديمويين) ، المستشرق الفرنسى :

(إن الباحث المنصف، لا مناص له من أن يعترف، بأن القرآن الذى يتلى الآن ــ هو القرآن الذى كان يتلوه محمد على أصحابه) .

أما (سير وليم موير)، فقد كتب بحثاً مستفيضاً ، خرج منه بنتيجة، يعتبرها يقينية ــ هى أن القرآن، لم يتعرض قط لتحريف ولا تبديل ــ وإنه الآن، كما كان عليه منذ أن نزل » (٢) .

بينما تعرضت كتب السابقين للتحريف والتشويه . . والمسخ أيضاً » (٣) .

ومن ثم فالاختلاف بين كتب السابقين والقرآن الكريم ، لا يعود إلى اختلاف عقائدى، وإنما هو يعود إلى التحريف، الذى دخل على كتب السابقين.

فالإطار العام للرسالات والكتب ، يجب أن يكون واحداً ، لأنها كلها منزلة من عند الله سبحانه .

يضاف إلى ذلك، أن كل دين من الأديان السماوية السابقة ، نزل لقوم

---

(١) قرآن كريم : آل عمران ــ ٣ : ٨٤ .

(٢) خليل طاهر (مرجع سابق) ، ص ٩ ، ١٠ ــ من المقدمة ، للدكتور عبد الحليم محمود .

(٣) لنا عودة الى هذا الموضوع ، فى كتابينا اللذين سنخصصهما لهذا الموضوع ، وهما : (أنبياء الله) ، و (بنوا اسرائيل) ، ضمن هذه السلسلة باذن الله .

معينين ، فى زمان ومكان معينين ، لعلاج مرض اجتماعى معين ، نشأ عن فساد العقيدة ، » ومن ثم يتفق الرسل جميعاً فى هذا الجوهر ، ثم يختلفون بعد ذلك اختلافات (نوعية) ، حسب المرض الاجتماعى الذى استشرى ، بسبب فساد العقيدة . وقد اختلف هذا المرض من مجتمع إلى آخر «(١) .

ومن ثم، فكل منها يكمل الآخر ، وكل منها ناقص على وجه من الوجوه.

وكل منها — فى النهاية — يجد بقيته .. فى القرآن الكريم .

وهكذا يجمع القرآن الكريم — إلى جانب الصحة والدقة — الكمال والتمام .

ولم يكن غريباً — لذلك ـ ألا يتم للمسلمين تقدم إلا فى ظل القرآن، وألا يتم لغير المسلمين تقدم ، إلا بهرب من كتبهم . . التى حرفت لتوافق الهوى والمزاج الشخصى للمؤلف، ثم للمترجم بعد المؤلف، ثم للمترجم عن المترجم.. ليخرج الكتاب السماوى - بعد ذلك كله ـ مسخاً مشوهاً .

وكم كانت حكمة - لذلك — ألا يسمح بترجمة القرآن الكريم .

فإذا ما اضطرت الظروف إلى الترجمة ، كانت هذه الترجمة للضرورة القصوى ، ولم تكن قراءتها قراءة تعبدية ، تجوز بها الصلاة مثلا .

إن ذلك كان لحكمة بالغة ، يعرفها من يعرفون ما أصاب كتب الديانات السماوية الأخرى ... من تشوية ومسخ ، لأسباب عديدة ، منها ترجمتها .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٦٢ .

وكم كانت حكمة — لذلك أيضاً — تلك الدقة البالغة ، التى جمعت بها الأحاديث النبوية الشريفة ، وليس لها ما للقرآن من قداسة .

ولكن علماء الحديث — بهذه الدقة وحدها — حرروا كلام الرسول من الإسرائيليات ، نفس الإسرائيليات التى ملأت كتب بنى إسرائيل ، ابتداء من سفر التكوين ، أول أسفار التوراة ، وانتهاء برؤيا يوحنا اللاهوتى ، آخر أسفار الإنجيل ، وما بين السفرين من أسفار ، يضمها الكتاب المقدس ، بعهديه القديم والجديد .

ويقال إن هذه الدقة العلمية ذاتها ، التى تعلموها من جمعهم للحديث الصحيح ، هى التى علمت المسلمين الدقة فى ساحة العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، ثم فى ساحة العلوم الطبيعية أيضاً بعد ذلك .

فقد تكون فى الكتب السماوية السابقة إشارات كونية ، كتلك التى فى القرآن الكريم ، وهى لا بد أن تكون — إن كانت — صحيحة ، صحة الإشارات التى وردت فى القرآن ، ولكن عبث الرواة لا بد أن يكون قد أفسدها .

وقد رأينا — عند الإشارة إلى الآيات الكونية فى القرآن الكريم — مدى الدقة فى استخدام اللفظ ، كلفظ (الدخان) الذى خلقت منه السماء والأرض ، وكلفظ (الماء الدافق)، الذى يتكون منه الإنسان فى رحم الأم ، وكلفظ (الرتق) ، ولفظ (السقف) بالنسبة للسماء ، وغيرها ، وغيرها ، وكل لفظ من هذه الألفاظ لا يؤدى غيره معناه ، كما أن التركيب نفسه يؤدى معنى ، لا يؤديه لو قدم فيه لفظ على لفظ ، أو حل فيه لفظ محل آخر .

لقد حوفظ على اللفظ والتركيب فى القرآن الكريم ، فبقى إعجازه ،

وكانت مسايرته لتحديات العصر وكل عصر ، ولم تتم تلك المحافظة على اللفظ والتركيب فى كتب الديانات الأخرى ، فكان الخطأ والخلط .ـ وناهيك عن التحريف المقصود ، الذى دخل على هذه الكتب ، فباعدت بينها كما هى اليوم ، وبين أصلها كما ورد على لسان كل نبى من أنبيائها .

وكل هذه المميزات التى يمتاز بها الإسلام وكتابه ، تدفع إلى العودة إليه مرة ثانية ، لمصلحة الدين والدنيا على السواء ــ فلا حياة عزيزة كريمة ، ولا تقدم وازدهار ، إلا إذا عاد المسلمون إلى دينهم . . من جديد .

وقد يقول قائل : ولكن التقدم الذى حدث فى الغرب والشرق على السواء اليوم ، قد تم من وراء ظهر الدين ، وعلى حسابه .

والقائل بذلك محق فيما يقوله أو يدعيه، ولكن الحضارة الحديثة وفرت للناس الخير الكثير ، ولكنها بقدر ما وفرت للناس من خير ، وفرت لهم الشقاء أيضاً . فهى حضارة مادية ، لا ترى الإنسان غير كيانه البيولوجى ، فسعت لإشباع هذا الكيان ، ونسيت حاجات روحه .

وهكذا تقدم الغرب والشرق على السواء خطوات واسعة ، وتخلفا خطوات أوسع .

تقدما فى مجال التقدم المادى ، وتخلفا فى مجال الروح .

والحضارة التى تقيم تقدمها على هذا الأساس ، إنما تدمر نفسها بنفسها ، كما حدث فى الحضارتين الفارسية والرومانية ، اللتين عاصرتا مولد الإسلام .

والحضارة التى تقيم تقدمها على الشمول ، كما تفعل حضارة الإسلام ، هى الأبقى والأخلد . . والأليق بلفظ الحضارة .

فالمقارنة بين التقدم الذى نريد للإسلام أن يحدثه ، والتقدم الموجود اليوم ، مقارنة لا تجوز ، لأنها مقارنة بين الشىء ونقيضه . . والأساس الذى يجب أن يتوفر للمقارنة بينهما غير موجود .

كلمة أخيرة :

لا يمكن أن ينتهى هذا الفصل هكذا ، دون ما إشارة إلى نقطة أساسية ، تتسم بها نظرة الإسلام إلى الكون ، وتختلف بها عن النظرة الحديثة إليه ، وتسمو بها فوق أى نظام بشرى وجد،ويمكن أن يوجد — فى هذا المجال.

وقد رأينا أن الإسلام يعتبر دراسة الكون (فرضاً) على المسلمين ، لأنها السبيل الذى اتخذه إلى الإيمان الصحيح .

فدراسة الكون — بأوسع مفهوماته — هى السبيل إلى اليقين ، فى الإسلام .

وبدونها — وبدون التفكر فى خلق السموات والأرض ، وغيرها من خلق الله — يكون إسلام المسلم — على أحسن الفروض — ناقصاً .

ودراسة الكون — بأوسع مفهوماته — هى محور نشاط البلاد المتقدمة، فى (عصر الفضاء) الذى نعيشه .

ويعتبر التقدم فى مجال الفضاء فى هذه البلاد ، هدفاً استراتيجياً عزيزاً ، لا يقل فى أهميته عن العناية بتطوير الأسلحة .

ومن ثم فدراسة الكون فى الإسلام ، ودراسته فى المدنية الحديثة ، هدف عزيز.

والفرق بينهما، هو أن اهتمام الإسلام بدراسة الكون ،قد سبق اهتمام المدنية الحديثة بالكون . . بأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

ويعود هذا السبق الإسلامى، إلى أن دراسة الكون فى الإسلام هدف فى حد ذاتها ، بغض النظر عما تؤدى إليه من فوائد مادية ، بينما لم تبدأ المدنية الحديثة تهتم بهذه الدراسة ، إلا بعد أن وقفت على ما يمكن أن تجنيه من ورائها من مكاسب مادية ، سواء ما يتصل من هذه المكاسب بالسمعة الأدبية ، وبكسب الحرب الباردة الدائرة بين الشرق والغرب ،

وبالمكاسب المادية المباشرة ، الناتجة عن دراسة الفضـــاء الخارجى ، والاستفادة من هذه الدراسة فى الأغراض العسكرية والصناعية والاقتصادية المختلفة .

وبعبارة أخرى : إن دراسة الكون فى الإسلام لون من ألوان العبادة، ومن ثم بدأ الاهتمام بها مع السنوات الأولى للإسلام، بينما دراسة الكون فى المدنية الحديثة لون من ألوان الكسب المادى ، ومن ثم لم يتم اهتمام بهـا ، إلا بعد ثبوت (مكسبيتها) .

وليس معنى ذلك أن الإسلام يرفض ما يمكن أن يعود من وراء دراسة الكون من (مكسبية) ، وإنما معناه أن الهدف ليس الكسب ، وإنما يأتى الكسب المادى من وراء دراسة الكون عرضاً ، وفى الطريق .

فنظرة الإسلام إلى دراسة الكون هنا ، كنظرته إلى العلم وإلى العمل .

ونظرة المدنية الحديثة إلى دراسة الكون هنا ، كنظرتها إلى العلم وإلى العمل أيضاً .

فالعلم والعمل فى الإسلام هدف فى حد ذاتهما ، بغض النظر عما يؤديان إليه من نتائج عقلية ، ومن زيادة فى الرزق ، لأنهما يتصلان (بكرامة) الإنسان ، وباستحقاقه لذلك التكريم الذى كرمه به ربه ، يوم استخلفه .

والعلم والعمل فى المدنية الحديثة ضروريان للإنسان ، لضمان رزقه ، وبدونهما يهدد الرزق أو يقطع . وكرامة الإنسان لا اعتبار لها فى هذا المجال .

ذلك أن منظور المدنية الحديثة إلى الإنسان ، وإلى الحياة وإلى الكون .. هو منظور مادى خالص ، بينما منظور الإسلام إلى هذه الأمور كلها ،

هو هو المنظور الذى ينظر به إلى كل شىء ، وهو أن الإنسان خليفة لله فى الأرض .

وفرق كبير بين أن تكون دراسة الكون هدفاً فى حد ذاتها ، كما هى فى الإسلام ، وبين أن تكون مجرد وسيلة لهدف آخر ، هو السيطرة على الكون ، أو الكسب المادى ، كما هى فى المدنية الحديثة .

إنه هو هو الفرق بين الإسلام ، كدين يحترم كرامة الإنسان ، ويسعى إلى خلق حياة إنسانية فاضلة على الأرض ، وبين المدنية الحديثة كمدنية مادية ، لا ترى فى الإنسان إلا (حيواناً) ، يسعى لإشباع غرائزه وشهواته ، بكل سبيل .

إن الفائدة المادية تتحقق فى الحالين ، ولكن فرق بين أن تتحقق الفائدة ، ويتحقق معها الإيمان والعدل والخير والتعاون لصالح البشرية ، وبين أن تتحقق الفائدة ويتحقق إلى جانبها الصراع والقلق ، والتهديد لأمن البشرية كلها .

وللمسلم أن يفخر بدينه

نحن نعيش اليوم فى عصر الفضاء — أو عصر السماء ، كما يحلو للبعض(1) أن يسميه .

وقد بدأنا نعيش فى هذا العصر ، منذ ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧ ، حيث أطلق القمر الروسى الأول ، الذى أخذ يدور حول الأرض دورة كاملة كل ٩٦ دقيقة ، على ارتفاع ٩٥٠ كيلو متراً من سطح الأرض ، ثم أطلق القمر الروسى الثانى فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٧ ، ليتم دورته حول الأرض فى ١٠٣ دقيقة ، وعلى ارتفاع ١٦٦٤ كيلو متراً ، حاملا معه كلبة ، لدراسة تأثير الرحلة عليها ككائن حى .

وفى ٣١ يناير سنة ١٩٥٨ ، بدأ الأمريكيون يقتحمون مجال الفضاء — أو السماء — بإطلاق قمرهم الصناعى الأول ، الذى أخذ يدور حول الأرض فى ١١٥ دقيقة ، وعلى ارتفاع ٢٤١٥ كيلو متراً .

ثم توالى إطلاق الأقمار الصناعية بعد ذلك ، تحمل أجهزة الرصد والتصوير والإذاعة ، حتى صار الفضاء — أو السماء — مجالا من مجالات الحرب الباردة ، الدائرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، كل منهما يحاول أن يكون له السبق فى الاقتحام ، والسبق فى الاكتشاف .

وفى ١٢ سبتمبر ١٩٥٩ ، نجح الاتحاد السوفيتى فى إنزال أول مركبة له

---

(1) عبد الرزاق نوفل (مرجع سابق) ، ص ١٣٣ — وعن مرجعه ، أخذنا المادة العلمية التى نستهل به تقديمنا لهذا الكلام (وللمسلم أن يفخر بدينه) ، خاصة ما يتصل منها باقتحام الفضاء وتاريخه ، والأرقام المتعلقة به .

على القمر، ثم أرسل الإنسان إلى القمر جهازاً ،حفر قطعة من أرض القمر، وحللها ، وأجرى دراسات عليها .

وفى ٢١ ديسمبر ١٩٦٨ ، نجح الأمريكيون فى إطلاق سفينة فضاء ، بها ثلاثة رواد فضاء ، خرجوا من جاذبية الأرض ، وطافوا حول القمر ، لأول مرة فى تاريخ البشرية ، حيث رأى الإنسان — لأول مرة — القمر عن قرب ، وحيث دار حوله عن قرب أيضاً ، ورأى وجهيه : الذى يقابل منهما الأرض ، والذى لا يظهر لها أبداً .

وقد تكلف الصاروخ ، الذى حمل السفينة بهؤلاء الرواد الثلاثة، ١٠٦ مليون جنيه ، واشترك فى صنعه ٣٢٥ ألف رجل ، كما قامت العقول الالكترونية بخدمة الرحلة ، داخل السفينة وخارجها ، وقد قامت هذه العقول الالكترونية بإجراء ٨٠ مليار عملية حسابية فى اليوم الواحد، خلال الأيام الستة التى استمرت فيها الرحلة.

ثم تمكن رائدا فضاء أمريكيان ، من الهبوط فوق سطح القمر ، فى ٢١ يوليو ١٩٦٩ ، وتركا أجهزة علمية، ما زالت تعمل ، لمعرفة المزيد عنه .

وتعدى اهتمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى دراسة القمر ، الذى أرسلا إليه ما يقرب من أربعة آلاف سفينة وقمر ومركبة ، تحلل بعضها بمضى الوقت، ولا زال بعضها دائراً فى السماء، حتى يتحلل هو الآخر — تعدى الاهتمام القمر ، إلى الكواكب الأخرى ، ففى سنة ١٩٦١ ، أرسل الاتحاد السوفيتى أول محطة فضاء، لتمر على بعد ١٠٠ ألف كيلو متر من كوكب الزهرة ، إلا أنها ضاعت فى أعماق الفضاء ، ثم أرسل محطة أخرى لتقترب من الكوكب بمسافة ٢٤ ألف كيلو متر ، وفى عام ١٩٦٦ ، أرسل سفينة ، نزلت على سطح الكوكب ، ولكنها تحطمت ، ثم أرسل فى سنة ١٩٦٧ سفينة أخرى ، هبطت على سطحه بسلام ، وما زالت عليه ، ثم أرسل فى

أول يناير سنة ١٩٦٩ سفينتى فضاء ، هبطتا على سطحه، فى منتصف مايو من نفس العام .

ثم استعد العلماء لدراسة المريخ .

ويستعد العلماء الآن لتجربة فريدة من نوعها ، هى إرسال سفن فضاء بصاروخ واحد ، إلى عدد من الكواكب الأربعة البعيدة معاً ، وهى المشترى وزحل وأورانوس ونبتون، وينتظر أن يكون ذلك سنة ١٩٧٨/٧٧ ، حيث ستكون الكواكب الأربعة على خط واحد (١) ، مما يسمح بإطلاق صاروخ واحد إليها .

وثمة تقدم آخر ، أحرزه العلم الحديث ، فى صراع القوتين العظميين على غزو الفضاء ، وهو تحقيق أول التحام بين سفينتى فضاء ، فيها رواد من البشر ، وذلك فى يناير ١٩٦٩ ، وذلك بعد تجربة مثيرة حدثت سنة ١٩٦٥ ، وهى خروج رائد الفضاء من مركبته ، وسباحته فى الفضاء ، مما مهد الطريق لإمكانية إنقاذ سفن الفضاء ومن فيها ، إذا أصابها عطب .

ويجرى البحث الآن ، لإنشاء محطات فضاء ثابتة ، تكون نهاية لرحلة ، وبداية لرحلة أخرى أبعد ، وذلك لطول المسافات فى أجواء الفضاء المراد قطعها .

ومحاولات غزو الفضاء — أو السماء — على هذا النحو — أمر لا ينكره الإسلام ، وإنما هو يدعو إليها ، لأن الإنسان سيرى فيه قدرة الله ، تماماً كما يراها فى السماء، وفى الأرض ، وفى النفس .

وقد حاولت الجن، قبل الإنسان — كما قرر القرآن الكريم — غزو

---

(١) لا يتكرر الوضع المستقيم للكواكب الأربعة هكذا ، الا كل مائة عام .

السماء ، فوجدت فيها ما وجده الإنسان ، من شهب ، ومن حرس شديد ، استطاع الإنسان التغلب عليها ، بما أعطاه الله من سلطان العلم :

— « يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »(١) .

ولكن الجن لم يكن لها هذا السلطان ، فأخفقت فى مسعاها :

— « وأنا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لا ندرى : أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ »(٢) .

والشهب التى تملأ السماء أمرها معروف ، رأيناه عند حديثنا عن (الأرض وأخواتها) فى الفصل الثانى(٣) ، وهى تعتبر من الأخطار الكبرى التى تواجه رحلات الفضاء المتكررة ، والتى تواجه الحياة على الأرض ذاتها ، فبسببها حدثت حوادث كثيرة فى أنحاء مختلفة من العالم ، ولازالت تحدث ، وإن كانت تختلف فيما بينها من حيث (حجم) الخسارة .

والشهب ، كما هو معروف ، هى « بقايا النجوم المتفجرة » ، وتكون عبارة عن قطع من الصخر الدقيقة والصغيرة ، مندفعة فى السماء نحو الأرض ، بسرعة تصل إلى أكثر من أربعين ميلا فى الثانية ، وتجعلها هذه السرعة تنصهر وتغلى ، نتيجة احتكاكها بالهواء . . فتوجد الصخور الملتهبة ، والمعادن

---

(١) قرآن كريم : الرحمن — ٥٥ : ٣٣ — ٣٥ .

(٢) قرآن كريم : الجن — ٧٢ : ٨ — ١٠ .

(٣) ارجع الى ص ٤١ ، ٤٢ من الكتاب .

السائلة ، فوق درجة الغليان »(١) .

وربما كان أكبر هذه الشهب، وأكثرها تدميراً ،مانزل على منطقة كبيرة فى الولايات المتحدة وكندا ، منذ ألوف السنين ، وترك حرائق وتدميراً ، لا تزال آثارها واضحة على سطح الأرض ، فى ألوف من الفجوات فى سطح الأرض .. وهى أغوار بيضية الشكل ، منتظمة انتظاماً غريباً ، فى منطقة قطرها نحو ثمانين ميلا »(٢) .

وهى واحدة من قصص كثيرة ، ربما كانت أشدها هولا وتدميراً ..

أما الحرس الشديد، الذى تشير إليه الآية ، فربما يكمن فى تلك (الأشعة الكونية) ، التى تمتلىء بها السماء ، والتى تعتبر « جسيمات ذرية ، معظمها من البروتونات الطليقة ، وتأتى من بعيد ... بعيد جداً من السماء .. ولا يعلم أحد مصدرها .. ولا كيف تتكون .. ولا كيف تنطلق .. لا علاقة لها بالشمس ، لأنها أبعد منها جداً ، بل أبعد من النجوم التى رصدت، مما يؤكد أن مصدرها ليس الشمس ولا النجوم .. وسرعة انطلاقها فى السماء ، تجعل طاقة هذه الأشعة، تصل إلى أكثر من مائة مليون إلكترون فولت .. وهو أمر رهيب ... ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان ، الذى يعيش على الأرض ، وحتى تستمر الحياة على هذه الأرض ،فإن هذه الجسيمات العنيفة، عندما تهبط بهذه السرعة من السماء ، متجهة إلى الأرض ، فإنها تصطدم بجزيئات الهواء ، فى حافة جو الأرض العليا ، وتتحطم إلى رذاذ »(٣) .

وربما كان هذا الحرس — كذلك — يكمن فى ذلك الحزام ، الذى يغلف الأرض « بطاقات حرارية وبروتونات ، تختلف فى الكهرباء، عن البروتونات

---

(١) عبد الرزاق نوفل (مرجع سابق) ، ص ١٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

الموجودة فى كل مواد الأرض ، ولها من القدرة على التدمير ، ما يفوق الوصف ، ومن القوة ما يعجز الإنسان عن مواجهتها »(١) .

* * *

فللمسلم أن يفخر بدينه ، الذى دعاه إلى اكتشاف الكون من حوله ، وإلى اقتحام آفاق السماء فوقه ، كما دعاه إلى اقتحام أغوار الأرض من تحته ، والنفس فى أعماقه ، فلم يتخلف به عن التقدم ، بل اعتبر تخلفه هذا ...(ردة)عن الإسلام .

وإذا كان المسلمون قد تخلفوا اليوم عن الركب العالمى فى هذا المجال ، فقد كان تخلفهم من وراء ظهر الإسلام ، ونتيجة من نتائج بعدهم عنه ، وانحرافهم عن خطه ، ولم يكن نتيجة من نتائج فهمهم له ، وتمسكهم به .

وللمسلم أن يفخر بدينه ، الذى انفرد دون الأديان كلها ، كما سبق العلم الحديث ذاته ، بكشف آفاق الكون المجهولة ،التى لا زال العلم الحديث يفخر ، بأنه يخطو الخطوات الأولى على طريقها .

وسيظل العلم الحديث يحبو فى سيره ، ليظل قزماً ، أمام ما قدمه الإسلام من حقائق عملاقة ، عن الكون .

وإذا كان العلم الحديث قد وصل إلى القمر ، وبدأ يسلك سبيله إلى المريخ والزهرة والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون ، فإن القمر لا يزيد على أن يكون (ضاحية) من ضواحى الأرض ، إن صح هذا التعبير ، كما أن بقية الكواكب المشار إليها ، لا تزيد على أن تكون أجزاء ، من المجموعة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

الشمسية ، التى ننتمى إليها ، كما رأينا من قبل فى الفصل الثانى (١) .

والمجموعة الشمسية، جزء من مجرة تنتمى إليها ، ومجرتنا واحدة من عدة ملايين من المجرات .

والعلم الحديث نفسه، توصل سنة ١٩٦٩، «لمظاهر فضائية، توحى بمولد مجموعات شمسية شبيهة بمجموعتنا .. فقد رصدوا انبعاثات لاسلكية ، تشبه الانبعاثات الصادرة من بخار الماء الساخن، مما يوحى بوجود سحب بخارية ، ربما تكون فى طريقها إلى التشكل فى نجوم جديدة ، وكواكب تدور حولها، على نحو ما حدث فى مجموعتنا الشمسية» (٢) .

ومثلما تولد نجوم . . تموت نجوم وتختفى .

ومعنى ذلك أن الكون الواسع الفسيح، الذى لا تحده حدود، (يتجدد) باستمرار ، تجدد دم الإنسان وجلده وخلاياه .. وتجدد الحياة فى كل ما نراه من حولنا .

ومعنى ذلك أن العلم الحديث، لو تمكن من الوصول إلى الكواكب من حولنا ، فسيقضى العمر كله يدرس ويدرس .. دون أن ينتهى من الدراسة.

وسيظل العلم — رغم تقدمه الذى يتقدمه — وهو فرض مستحيل — عاجزاً عن الاقتراب من مجالات (كونية) ، اقتحمها القرآن الكريم ، مثل الجنة ، وعرش الله ، وسدرة المنتهى .

وقد وصفت الجنة فى القرآن الكريم ، بأن عرضها كعرض السماء والأرض :

---

(١) ارجع الى ص ٤٠ وما بعدها من الكتاب .
(٢) عبد الرزاق نوفل (المرجع الأسبق) ، ص ٧٩ .

— « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين »[١] .

— « سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم »[٢] .

ووصفت هذه الجنة ، بأنها عند سدرة المنتهى :

— « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى »[٣] .

وعند سدرة المنتهى، يقول القرآن: إن عرش الله سبحانه موجود ، وإن هذا العرش كان على الماء :

— « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ... »[٤] .

أما بعد خلق السموات والأرض ، فلا ذكر فى القرآن عن مكانه ، وإنما يذكر القرآن الكريم فى مواضع كثيرة أن الله سبحانه استوى عليه ، ليدبر أمر الكون ، ولو أنه ليس استواء كاستوائنا نحن البشر ، وإنما هو استواء يتفق مع جلال الله ويناسبه:

— « إن ربكم الله ، الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر

---

(١) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ١٣٣ .
(٢) قرآن كريم : الحديد — ٥٧ : ٢١ .
(٣) قرآن كريم : النجم — ٥٣ : ١٣ — ١٥ .
(٤) قرآن كريم : هود — ١١ : ٧ .

والنجوم مسخرات بأمره . . . » (١) .

— « إن ربكم الله ، الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر . . . » (٢) .

كما يذكر القرآن الكريم، أن الملائكة تحف من حول العرش ، تسبح بحمد ربها :

— « وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين » (٣) .

وأخيراً ، يذكر القرآن الكريم ، أن هذا العرش ليس فى مكان محدد ، كما يمكن أن يفهم ، ولكنه فى الكون كله ، يطل منه سبحانه على كل شىء ، فى السماء ، وفى الأرض ، وما بينهما ، وتحت الثرى . . وفى أعماق النفس أيضاً ، حيث يعلم السر وأخفى :

— « الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات ومافى الأرض ومابينهما ، وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » (٤).

للمسلم أن يفخر بدينه، الذى سبق العلم الحديث وعلم المستقبل، وسيظل يسبق أى علم بشرى ، مهما وصل إليه هذا العلم من آفاق ، لأنه يسبقها إلى مجاهل، لايستطيع هذا العلم البشرى اقتحامها، لأن أدوات اقتحامها، لايمكن أن تتوفر لديه .

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٥٤ .
(٢) قرآن كريم : يونس — ١٠ : ٣ .
(٣) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٧٥ .
(٤) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ٥ — ٧ .

وبذلك سيظل (العلم) البشرى — حتى يرث الله الأرض ومن عليها — متخلفاً ، إذا قيس بما قدمه الإسلام من (علم) .

* * *

وللمسلم أن يفخر بدينه ، الذى قدم له — مع صورة كاملة للكون — صورة كاملة لمخلوقات أخرى ، لا يستطيع العلم اقتحام آفاقها .. كالملائكة والجن والشياطين .

والعلم الحديث ، عندما يجد نفسه عاجزاً عن اقتحام مجاهل هذه العوالم، التى تعيش معنا فى هذا الكون .. وعلى الأرض .. وفى النفس .. لا يعترف — كعادة الماديين — بعجزه .. وإنما يرمى أى دين يقول بها، بالتخلف والجمود .

ولا ندرى : أتقدم من العلم أن يعترف بعجزه ، وبضعف إمكانياته . . أم أن يتهم من يقولون بما لا يعرف ، بالتخلف والجمود ؟

للمسلم أن يفخر — مرة أخرى — بأن دينه ، سيظل متقدماً على العلم، فى هذه المجالات أيضاً . . مهما وصل بإمكانياته ، وبمعداته ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها أيضاً .

* * *

وللمسلم بأن يفخر بدينه ، الذى لم يقدم ذلك كله اليوم . . بعد الاكتشافات ورحلات الفضاء . . وإنما قدمه منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان . . أيام كانت المعرفة البشرية بها محدودة ، بل كانت على النقيض مما يقول به العلم الحديث تماماً .

قال الإسلام به ، وقت أن كانت الأرض ، فى نظر العلماء ، لا تزال مستوية ، وكانت محمولة على رأس ثور كبير .

قال به فى أسلوب، استطاع القدماء أن يفهموه ، بما كان يناسب الحياة فى عصرهم ، واستطاع المسلمون — بعد كل كشف علمى — أن يفهموه فهماً جديداً ، يناسب روح العصر ، ولا يخالفها .

للمسلم أن يفخر بدينه ، الذى كان كتابه — القرآن الكريم — جديداً متجدداً دائماً ، تجدد الحياة من حوله ، فلم يتخلف عن هذه الحياة ، بل كان — دوماً — يسبقها إلى الأمام .

* * *

وللمسلم أن يفخر بدينه، الذى قدم له الكون — كما يقول العلم الحديث — كلا متكاملا ، لا ممزقاً منفصلا ، ولقد كان الإسلام — فى تكامل نظرته إلى الكون — أكثر تكاملا من العلم الحديث ذاته ، الذى نظر إلى جزئيات الكون منفصلة ، بينما نظر إليها الإسلام متكاملة ،متصلة — فى النهاية — بالله سبحانه وتعالى ، على قمـــة النظام الكونى كله .

وقد رأينا أن لدى الإسلام تصوراً كاملا لهذا الكون، الذى نعيش فيه، ابتداء من هذه الأرض التى نعيش عليها ونرتبط بها، وانتهاء بالكون الواسع، الذى لا تحده حدود .

وهذا التصور كامل، كمال التصور الذى رأيناه فى الكتاب الأول للعقيدة، وكمال التصور الذى رأيناه فى الكتاب الثانى لله سبحانه .

ورأينا أن التصور الإسلامى للكون — كالتصورين السابقين — هو التصور الكامل ، الذى وصل العلم الحديث — من خلال أجهزته ومعداته وإمكانياته الهائلة — إلى بعضه، وظل عاجزاً — حتى اليوم — عن الوصول إلى بعضه ، وسيظل عاجزاً أبد الدهر عن الوصول إلى بعضه الثالث ، لأن هناك

مجالات فى الكون ، سيظل العلم الحديث عاجزاً عن الوصول إليها ، مهما أوتى من إمكانيات .

* * *

للمسلم أن يفخر بدينه ، الذى صمد لكفار الأمس ، بحقائقه الكونية التى قدمها ، وبإعجاز أسلوب قرآنه ، كما ثبت — ويثبت — لكفار اليوم ، بحقائقه الكونية التى قدمها - نفس الحقائق ، بإعجاز أسلوبه — نفس الإعجاز .

وهو بحقائقه ، وبأسلوب قرآنه .. جديد متجدد دائماً .. تجدد الحياة الإنسانية كلها ، وتجدد حياة الكون كله ، كما سبق .

ولم يستطع المتهجمون على الإسلام ، وكانوا كثيرين كثيرين ، سواء من الكفار ، ومن أهل الكتاب — أن يجدوا فيه ثغرة من هذه الزاوية — الزاوية الكونية . وتمر الأيام ، ويتقدم الإنسان ، ويصل إلى رصيد ضخم من المعرفة عن الكون المحيط بنا ، ويزيد أعداء الإسلام عدداً ، ويزيدون علماً ، ويزيدون ضراوة ، ولا يجدون فيه — بعد ذلك كله ورغمه — ثغرة من هذه الزاوية أيضاً .

بل على العكس من ذلك ، يجدون الإسلام لازال يتحداهم ، كما تحدى سابقيهم .. فهو يسبقهم على الطريق .. ويقفون هم عاجزين ... وسيظلون .

والألفاظ التى استخدمت بالأمس وتحدت ، هى نفس الألفاظ ، التى لا زالت تستخدم وتتحدى حتى اليوم .

والعبارات والتراكيب التى استخدمت وتحدت بالأمس ، هى نفس العبارات والتراكيب ، التى لازالت تستخدم وتتحدى حتى اليوم .

والمعانى التى قصد إليها القرآن الكريم وتحدى بها بالأمس ، هى نفس المعانى ، التى لازال يستخدمها ويتحدى بها حتى اليوم .

فأية براعة ؟ وأى إعجاز ؟

وسبحان ربى ، خالق الكون ، المنزل من عنده القرآن ، حين تحدى ، ولا زال التحدى قائماً — حيث قال :

— « أم يقولون : افتراه ؟ قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنتم صادقين »(١) .

ولكنهم فشلوا — وسيظلون يفشلون — لأنه من عند الله :

— « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً »(٢) .

فللمسلم أن يفخر بدينه ، الذى مكنه من أن يعيش فى كل عصر ، بروح العصر ، بل أسبق من هذا العصر الذى يعيش فيه ، فهو — به — قادر على أن يسبق خطى العلم ، ويرتاد آفاق الكون ، إن لم يكن بعلمه وأدواته ، لتخلفه فيها ، كما هو اليوم ، فبقرآنه ، الذى يدعوه إلى ذلك ، ويقدم له فيه الآيات تلو الآيات ، والحقائق تلو الحقائق .

للمسلم أن يفخر بدينه وقرآنه ، لأنه لن يجد — ولن يجد له غيره — فى هذا الكون ،غير ما ذكره له القرآن ، ولأنه لن يجد تناقضاً بين ما يقول به العلم، وما يقول به القرآن ، إلا أن يكون العلم قد ضل طريقه .. ولكنه — باستمرار التقدم — سيعود يوماً ، قريباً أو بعيداً — كما عاد من قبل — إلى ما قال به القرآن .

وللمسلم أن يفخر بدينه وقرآنه ، لأنه يدفعه دفعاً ، ويأمره أمراً ، أن يتفكر فى خلق السموات والأرض ، وأن يقتحم مجاهل الفضاء ، كما يقتحم

---

(١) قرآن كريم : يونس — ١٠ : ٣٨ .
(٢) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٨٢ .

أغوار الأرض وأعماق المحيطات ، بحثاً عن الحقيقة ... فإن لم يجده ، فقد أدى ما عليه ، وإن وجده فسيزداد إيماناً ، ويزداد - بالإضافة إلى الإيمان - جاهاً وثروة ونفوذاً .

للمسلم أن يفخر بدينه وقرآنه ، لأنه إن كان قد تخلف فى هذه المجالات اليوم ، وسبقه فيها غيره ، فقد تخلف عن الركب ، لأنه خالف دينه وقرآنه ، فالعيب عيبه هو ، وليس عيب الدين والقرآن .

فلم يكن الإسلام — ولا القرآن — هو الذى أمره أن يغمض عينيه ، وأن يخلد إلى الراحة ، حتى يتخلف ، وإنما كان الإسلام — والقرآن — قد حذره من مغبة النوم والخلود إلى الراحة . فما كتبت الحياة للاهين العابثين ، ولا للنائمين الخاملين ، وإنما كتبت للعاملين الكادحين .

قانون سماوى يتعلمه المسلم ، فإذا نسيه ، فعلى نفسه جنى ، كما يجنى اليوم ، وإذا تذكره وعمل به فى دنياه ، ساد وانتصر ، وفاز فى آخرته بمقدار ما نفذ القانون ، وأعز كلمة الله .

* * *

وللمسلم أن يفخر بدينه ، الذى قدم له حقائق الكون متكاملة : الله مع مخلوقاته — الأرض مع السماء — الدنيا مع الآخرة . ومن ثم كان كل تقدم فى علم الكون يزيد من إيمانه بدينه ، ولا يقلل من هذا الإيمان :

— « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم »(١) .

---

(١) قرآن كريم : المجادلة — ٥٨ : ٧ .

وكل تقدم فى علم الكون، يدفعه دفعاً إلى الإيمان بالله .. وباليوم الآخر :

— « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار »(١) .

— « وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون »(٢) .

ومن ثم فكل تقدم فى علم الكون، يمكن أن يؤدى إلى مزيد من (تكيف) المسلم فى حياته الدنيا .. بينما يؤدى هذا التقدم ذاته بغير المسلم ، إلى مزيد من الاضطراب والبلبلة ، والإحساس بالخطر والتهديد .

فالمسلم الحق يربط المعرفة بالله الخالق .. مدبر الأمر كله ، فيزداد طمأنينة ، والكافر يرى هذه المعرفة — بغير الله — مبتورة ، فيزداد شكا وقلقاً :

— « غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم. وعد الله ، لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون . أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى .. »(٣) .

* * *

وللمسلم — أخيراً — أن يفخر بدينه ، الذى خرج به من إطار الحيوانية

---

(١) قرآن كريم : ابراهيم — ١٤ : ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٦٧ .
(٣) قرآن كريم : الروم — ٣٠ : ٢ — ٨ .

الصرف ، التى حصره فيها العلم الحديث والحضارة الحديثة .. وبذلك ربطه بأرضه التى يعيش عليها ، كما فعل العلم الحديث ، ولم يكتف بذلك ، بل ربطه — كذلك — بهذا الكون الذى يعيش فيه .. بالسماء ، وبالملائكة ، وبالعرش ، ورب العرش .. ولم ينظر إليه على أنه مجرد مخلوق — ولو ذكى — يعيش على هذه الأرض ، ولا على أنه — بذكائه — سيد خلق الأرض .. بل زاد فى تكريمه ، فجعله خليفة لله فى الأرض ، له فيها رسالة ، عليه أن يقوم بها ويؤديها .

للمسلم أن يفخر بدينه ، الذى كرمه هذا التكريم كله ، وربطه بالكون المحيط به هذا الربط المحكم .. فمكنه من أن يعيش فى كل عصر بروح العصر ، ولو تخلف مادياً عن حياة ذلك العصر .. ومن أن يعيش — رغم ظروف كل عصر — مع الله ، خالق الكون ومدبر أمره ، فيحيا حياته الدنيا فى طمأنينة وسلام ، على أمل الآخرة ، التى يأمل أن يلقى فيها الله .. على هدى وتقى .. وخشية ، فيكون (مع الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً)(١) .

---

(١) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٦٩ .

مراجع الكتاب

أولا: المراجع العربية :

١ ــ ابراهيم خليل أحمد : محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة الوعى العربى (بدون تاريخ).

٢ ــ أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ــ الطبعة العاشرة ـ مطابع على بن على ـ الدوحة ـ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

٣ ــ الدكتور أبو الفتوح رضوان : «أمجادنا التاريخية ومكانتها فى مناهجنا المدرسية » ـ الرائد ــ عدد ممتاز عن مؤتمر المعلمين العرب ـ الاسكندرية ـ ١٩٥٦ .

٤ ــ أحمد الشرباصى : قصة التفسير ــ رقم (٥٤) من (المكتبة الثقافية) ، ـ دار القلم بالقاهرة ـ أول فبراير ١٩٦٢ .

٥ ــ أحمد أمين : « العلم والدين » ــ فيض الخاطر ــ الجزء الرابع ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٤٣ .

٦ ــ أحمد أمين : ظهر الإسلام ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٤٦ .

٧ ــ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام (دراسات فى التربية) ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٨ .

٨ ــ ألبرت أينشتين : النسبية ، النظرية الخاصة والعامة ـ ترجمه دكتور رمسيس شحاتة ـ راجعه دكتور محمد مرسى أحمد ـ رقم (٥٥٩) من (الألف كتاب) ـ الطبعة الثانية ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ ١٩٦٧ .

٩ — ألدوميلي : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى — نقله إلى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى - قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فوزى - جامعة الدول العربية - الإدارة الثقافية - الطبعة الأولى - دار القلم - ١٩٦٢.

١٠ — السيد محمود أبو الفيض المنوفى : أصالة العلم، وانحراف العلماء - رقم (٤) من (موسوعة وحدة الدين والفلسفة والعلم) - دار نهضة مصر للطبع والنشر - ١٩٦٩.

١١ — العهد الجديد.

١٢ — اميل بريبه : اتجاهات الفلسفة المعاصرة - ترجمه دكتور محمود قاسم - راجعه دكتور محمد القصاص - رقم (١٠) من (الألف كتاب) - دار الكشاف - بيروت - ١٩٥٦ .

١٣ — إنجيل برنابا (ترجمه من الانكليزية : الدكتور خليل سعادة — طبع على نفقة مطبعة المنار ، لصاحبها : السيد محمد رشيد رضا — مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده — القاهرة — ١٩٥٨) .

١٤ — الدكتور أنور عبد العليم : قصة التطور — رقم (٤) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم ومكتبة النهضة (بدون تاريخ) .

١٥ — برتا موريس باركر : ما وراء المجموعة الشمسية - ترجمة إدوار رياض - رقم (١٤) من (مجموعة الكتب العلمية المبسطة) - دار المعارف بمصر - ١٩٦٩ .

١٦ — برتراند رسل : النظرة العلمية - تعريب عثمان نويه - مراجعة الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن - الجامعة العربية (الإدارة الثقافية) - مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

١٧ — بطرس البستانى : كتاب دائرة المعارف ـ المجلد الحادى عشر ـ مطبعة الهلال بمصر ـ ١٩٠٠ .

١٨ — تشارلز داروين : أصل الأنواع ـ الجزء الأول ـ ترجمة اسماعيل مظهر ـ مراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (بدون تاريخ) .

١٩ — ثيا وريتشارد برجير : من الحجارة إلى ناطحات السحاب (قصة العمارة) ـ ترجمة المهندس محمد توفيق محمود ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٦٢ .

٢٠ — خليل طاهر : الأديان والإنسان ، منذ مهبط آدم ، حتى : اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلام ـ قدم له وراجعه : فضيلة الإمام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود ـ دار الفكر والفن ـ ١٩٧٦ .

٢١ — دكتور راشد البراوى : اقتصاديات العالم العربى ، من الخليج إلى المحيط ـ الطبعة الثالثة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٧٣ .

٢٣ — رالف ت . فلوولنج : « الفلسفة الشخصانية » — فلسفة القرن العشرين ـ مجموعة مقالات فى المذاهب الفلسفية المعاصرة — نشرها : داجو برت د . رونز ـ ترجمه عثمان نويه ـ راجعه الدكتور زكى نجيب محمود ـ رقم (٤٦٤) من (الألف كتاب) ـ مؤسسة سجل العرب ـ ١٩٦٣ .

٢٣ — رينيه ديكارت : مقال عن المنهج ـ ترجمة محمود محمد الخضيرى ـ الطبعة الثانية ـ راجعها وقدم لها : الدكتور محمد مصطفى حلمى ـ من (روائع الفكر الإنسانى) ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ ١٩٦٨ .

٢٤ — دكتور سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٠ .

٢٥ — سعيد حوى: جندالله ، ثقافة وأخلاقاً ـ من (دراسات منهجية هادفة فى البناء) ـ الطبعة الثانية (بدون ناشر ولا تاريخ) .

٢٦ — دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الإسلامية ، وأثرها فى الحضارة الأوربية ـ الطبعة الأولى ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٦٣ .

٢٧ — دكتور سعيد على غنيمة: أساسيات فى الجيولوجيا: الكونية ـ المعادن والصخور ـ الطبيعية ـ الطبعة الأولى ـ الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ـ ١٩٧٥ .

٢٨ — سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ـ دار الشروق (بدون تاريخ) .

٢٩ — سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة دار الكتاب العربى ـ ١٩٥٢ .

٣٠ — صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٤ .

٣١ — صالح عبد العزيز ، وعبد العزيز عبد المجيد : التربية وطرق التدريس ـ الجزء الأول ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٦ .

٣٢ — الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : القرآن وقضايا الإنسان ـ الطبعة الأولى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٢ .

٣٣ — عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الإسلام بالقاهرة ـ ١٩٧٣ .

٣٤ — عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ـ دار الإسلام ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ .

٣٥ — عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام - رقم (١١٣) من سلسلة (اقرأ) - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر (بدون تاريخ) .

٣٦ — عباس محمود العقاد : عبقرية خالد - دار الهلال (بدون تاريخ) .

٣٧ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٩٦٦ .

٣٨ — عباس محمود : ما يقال عن الإسلام - دار الهلال - ١٩٧٠ .

٣٩ — الدكتور عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى - الطبعة الثانية - مطبعة لجنة البيان العربى - ١٩٦٦ .

٤٠ — دكتور عبد الحميد أحمد أمين : الطاقة الذرية ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها - رقم (٦) من (الألف كتاب) - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦ .

٤١ — الدكتور عبد الحميد سماحة ، والدكتور عدلى سلامة : الفلك والحياة - رقم (٥١) من (المكتبة الثقافية) - دار القلم بالقاهرة - ١٥ ديسمبر ١٩٦١ .

٤٢ — عبد الرزاق نوفل : السماء ، وأهل السماء - الطبعة الأولى - مطبوعات دار الشعب - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

٤٣ — دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - ١٩٧٦ .

٤٤ — عبد الغنى سيد احمد عبود : دراسة مقارنة لنظام البحث العلمى ، فى الجمهورية العربية المتحدة ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفيتى - رسالة مقدمة إلى كلية التربية جامعة عين شمس ، للحصول على درجة دكتور فلسفة فى التربية - قسم التربية المقارنة والإدارة التعليمية (كلية التربية جامعة عين شمس) - القاهرة - ١٩٧٢ (استنسل) .

٤٥ — دكتور عبد الغنى عبود : « الإسلام وتحدى العصر : التربية المستمرة فى الإسلام » - تعليم الجماهير - مجلة متخصصة ، تصدر عن : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار - السنة الثالثة - العدد ٥ - يناير (كانون الثانى) ١٩٧٦ (عدد خاص) .

٤٦ — دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية فى الإسلام» - الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس - بأقلام نخبة من أساتذة التربية وعلم النفس - المجلد الثالث - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٧٦ .

٤٧ — دكتور عبد الغنى عبود : الأيديوجيا والتربية . مدخل لدراسة التربية المقارنة - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - ١٩٧٦ .

٤٨ — دكتور عبد الغنى عبود : « التربية ومحو الأمية الأيديولوجية » - تعليم الجماهير - مجلة متخصصة، تصدر عن : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار - السنة الثالثة - العدد السادس - مايو ١٩٧٦ .

٤٩ — دكتور عبد الغنى عبود : التعليم مدى الحياة فى الإسلام - دراسة تقدمت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جامعة الدول العربية)، إلى المؤتمر الدولى للتنمية وتعليم الكبار ، الذى عقد فى المدة من ٢١ - ٢٦ يونيو ١٩٧٦ ، بدار السلام - تنزانيا (استنسل) .

٥٠ — دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة - الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - ١٩٧٦ .

٥١ — دكتور عبد الغنى عبود : الله ، والإنسان المعاصر — الكتاب الثانى من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - ١٩٧٧ .

٥٢ — الشهيد عبد القادر عودة : الإسلام ، بين جهل أبنائه ، وعجز علمائه - المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع - ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

٥٣ — الدكتور عبدالله عبد الدائم : تاريخ التربية - من منشورات كلية التربية بجامعة دمشق - مطبعة جامعة دمشق - ١٩٦٠ .

٥٤ — الدكتور عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة - رقم (٦٢) من (المكتبة الثقافية) - دار القلم بالقاهرة - أول يونية ١٩٦٢ .

٥٥ — الدكتور عبد المحسن صالح : دورات الحياة — رقم (٧٦) من (المكتبة الثقافية) - دار القلم بالقاهرة - أول يناير ١٩٦٣ .

٥٦ — د . عبد المنعم عبيد : « الجامعات ، وعلاقتها بالصناعة والمجتمع » — الكاتب — مجلة المثقفين العرب — السنة الحادية عشرة — العدد ١١٨ — يناير ١٩٧١ .

٥٧ — عبد الوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس - رقم (٥٥) من (المكتبة الثقافية) - دار القلم بالقاهرة - ١٥ فبراير ١٩٦٢ .

٥٨ — عمر أبو النصر : على وعائشة - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٤٧ .

٥٩ — فتحية حسن سليمان : التربية عند اليونان والرومان - مكتبة نهضة مصر (بدون تاريخ) .

٦٠ — قرآن كريم .

٦١ - ك. ر. تيلر : الكيمياء والإنسان - ترجمة الدكتور حسن عابدين - مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل - رقم (٤٤١) من (الألف كتاب) - دار الهلال - ١٩٦٢ .

٦٢ — محمد الصادق عرجون : الموسوعة ، فى سماحة الإسلام - المجلد الأول - مؤسسة سجل العرب - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢ م .

٦٣ — الدكتور محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ، وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٠ .

٦٤ — الدكتور محمد جمال الدين الفندى : الفضاء الكونى ـ رقم (٣٧) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة ـ ١٥ مايو ١٩٦١ .

٦٥ — محمد عبدالله السمان : مفتريات اليونسكو على الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦ م .

٦٦ — الدكتور محمد فاضل الجمالى : نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الإسلامى — الدار التونسية للنشر — ١٩٧٢ .

٦٧ — فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ، معجزات الرسول ، إعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الإسلام — إعداد وتقديم : أحمد فراج — الطبعة الثانية — دار الشروق — ١٩٧٥ .

٦٨ — الدكتور محمد يوسف حسن : قصة كوكب — رقم (٦٨) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول سبتمبر ١٩٦٢ .

٦٩ — دكتور محمود عبد الرزاق شفشق ، ومنير عطا الله سليمان : تاريخ التربية ، دراسة تاريخية ثقافية اجتماعية — دار النهضة العربية — ١٩٦٨ .

٧٠ — مصطفى محمود : من أسرار القرآن — العدد (١١٥) من (كتاب اليوم) — مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة — سبتمبر ١٩٧٦ .

٧١ — مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن — الطبعة الثانية — منشورات العصر الحديث — ١٣٩٣ — ١٩٧٣ .

٧٢ — الدكتور هارى نيكولزهولمز : قصة الكيمياء ، من خلال أنبوبة الاختبار — ترجمة الدكتور ألفونس رياض ، والدكتور عبد العظيم عباس —

مراجعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل – رقم (٢٨٤) من (الألف كتاب) – مكتبة نهضة مصر ومطبعتها (بدون تاريخ) .

٧٣ – وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل علمى إلى الايمان – ترجمة ظفر الإسلام خان – مراجعة وتقديم : دكتور عبد الصبور شاهين – الطبعة الخامسة – المختار الإسلامى – ١٩٧٤ .

٧٤ – الدكتور وهيب ابراهيم سمعان: الثقافة والتربية فى العصور القديمة، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) – دار المعارف بمصر – ١٩٦١ .

٧٥ – الدكتور وهيب ابراهيم سمعان: الثقافة والتربية فى العصور الوسطى، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) – دار المعارف بمصر – ١٩٦٢ .

٧٦ – ويليام بوين سارلز : علم الأحياء الدقيقة – ترجمة دكتور صلاح الدين طه وآخرين – مراجعة يونس سالم ثابت – مكتبة النهضة المصرية – ١٠٦٢ .

٧٧ – الدكتور يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة – الطبعة الثانية – مكتبة وهبة – ١٩٧٣ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 — BENIANS, SYLVIA : From Rensissance to Revolution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen & Co. Ltd., London, 1923.

2 — GIBB, H. A. R. and KRAMERS, J. H. : Shorter Encyclopaedia of Islam; Leiden, E. J. Brill, 1953.

3 — GUEST, GOERGE : The March of Civilisation; G. Bell and Sons, Ltd., 1951.

4 — HUDSON, WILLIAM HENRY : The Story of the Renaissance; Goerge G. Harrap & Company Ltd., London, 1928.

5 — RADWAN, ABU AL - FUTOUH AHMAD : Old and New Forces in Egyptian Education, Proposals for the Reconstruction of the Program of Egyptian Education, in the Light of Recent Cultural Trends; Bureau of Publications, Teachers College, Columbia University, New-York, 1951.

6 — SAGAN, CARL and LEONARD, JONATHAN NORTON and the Editors of LIFE : Planets; LIFE Science Library, Time - Life International (Nederland) N. V., 1967.

7 — ULICH, ROBERT : The Education of Nations, A Comparison in Historical Perspective; Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1961.

للمؤلف

أولا : من كتب التربية

١ ـ **فى التربية المقارنة** ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٤
(مع الدكتورة نازلى صالح) .

٢ ـ **الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة** ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٦ والطبعة الثانية ١٩٧٧

٣ ـ **نحو فلسفة عربية للتربية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٦
(مع الدكتور عبد الغنى النورى) .

٤ ـ **فى التربية الاسلامية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ .

٥ ـ **فى التربية المعاصرة** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧
(مع الدكتور ابراهيم عصمت مطاوع) .

٦ ـ **دراسة مقارنة لتاريخ التربية** ـ دار الفكر العربى (تحت الطبع) .

٧ ـ **الادارة التربوية ، أصولها وتطبيقاتها** ـ دار الفكر العربى
(تحت الطبع) .

ثانيا : من كتب هذه السلسلة

(وتصدرها كلها دار الفكر العربى)

١ ـ **العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة** ـ مايو ١٩٧٦ .

٢ ـ **الله والانسان المعاصر** ـ فبراير ١٩٧٧ .

٣ ـ **الاسلام والكون** ـ مايو ١٩٧٧ .

الكتاب الرابع من السلسلة
الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر
يصدر مع مطلع العام القادم باذن الله

رقم الايداع ٣٢١٦ / ١٩٧٧